

الفصل الرابع

مقارنة بين التفسيرين من أول سورة النساء إلى آخر المائدة

وفيه ثلاثة عشر مسألة:

- المسألة الأولى: المقارنة بين المفسرين في مصادرهما ومدى تأثرهما بها.
- المسألة الثانية: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي بين الإمامين.
- المسألة الثالثة: موقف المفسرين من علمي اللغة والبلاغة وتعرضهما لهما في تفسيريهما.
- المسألة الرابعة: روايتهما للقراءات ودرجة احتجاجهما بها.
- المسألة الخامسة: المقارنة بين المفسرين في تعرضهما للأحكام الفقهية.
- المسألة السادسة: موقف كل منهما من الإسرائيليات.
- المسألة السابعة: عنايتهما بعلوم القرآن في تفسيريهما.
- المسألة الثامنة: موقف كل منهما من مسائل علم الكلام.
- المسألة التاسعة: المقارنة بين المفسرين في الصناعة الحديثية.
- المسألة العاشرة: المقارنة بين المفسرين في الصناعة الأصولية.
- المسألة الحادية عشر: المقارنة بين المفسرين في قواعد التفسير.
- المسألة الثانية عشر: المقارنة بين المفسرين في قواعد الترجيح.

المسألة الأولى

المقارنة بين المفسرين في مصادرهما ومدى تأثيرهما بها

تعتبر المصادر النواة الأولى للمفسر، سواء كانت هذه المصادر تلقى عن الشيوخ، أو متمثلة في

الكتب التي استفاد منها في كتابة التفسير، وفيما يلي عرض للمصادر التي تأثر بها كلا من الإمامين:

أولاً: أهم المصادر التي تأثر بها ابن الجوزي في تفسيره:

جمع ابن الجوزي في كتابه علومًا كثيرة، فلم يترك -رحمه الله- مصنفًا مهمًا في علم من العلوم، يتضح ذلك من خلال نقله؛ إما عن عالم -دون أن يذكر كتابه- وإما أن يحيل إلى الكتب البارزة في موضوعها، واعتمد ابن الجوزي على مؤلفات معتمدة من كتب التفسير وعلوم القرآن، ويذكر الأقوال إجمالاً مع نسبتها إلى أصحابها، ولا يذكر أدلتها ولا يناقشها، ومما اعتمد عليه في سورة النساء والمائدة ما يلي:

أ. كتاب "النكت والعيون" للماوردي، مثال:

- تفسير الآية ١ من سورة النساء (٣٦٦/١)، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

- تفسير الآية: ١ من سورة المائدة (٥٠٦/١) (٥٠٧/١)، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ب. كتاب "معاني القرآن وإعرابه" لأبو إسحاق الزجاج، مثال:

- تفسير الآية: ٢ من سورة النساء (٣٧٦/١)، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾.

- تفسير الآية: ١٢ من سورة المائدة (٥٢٦/١)، وهي قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَفْسِهِمْ مِيتَاتُهُمْ لَعَنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ج. كتاب " تأويل مشكل القرآن " لابن قتيبة الدينوري، مثال:

- تفسير الآية: ٣ من سورة النساء (٣٦٩/١)، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾.

د. كتاب "الوقف والابتداء والبيان في غريب إعراب القرآن، لابن الأنباري، مثال:

- تفسير الآية: ٤ من سورة النساء (٣٧٠/١)، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

هـ. كتاب "معاني القرآن" للفراء، مثال:

- تفسير الآية: ٣٦ من سورة النساء (٤٠٤/١)، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

- تفسير الآية: ٤ من سورة المائدة (٥١٦/١)، وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

و. كتاب "جامع البيان عن تأويل آيا القرآن" للطبري، مثال:

- تفسير الآية: ١١٢ من سورة النساء (٤٦٨/١)، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ
إِنَّمَا تَمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾.

- تفسير الآية: ٣١ من سورة هود (٥٣٨/١١)، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثانيا: أهم المصادر التي تأثر بها ابن عطية في تفسيره:

إن الناظر المتمعن في تفسير ابن عطية يجده بالرغم من تأثره بمن سبقوه في مجال
التفسير، إلا أن موقفه لم يكن موقف الناقل، بل كان كثيرا ما يخالف وينقد، فقد تفرد بالمنهج
الذي وضعه لنفسه، الجامع بين التحري والدقة والإيجاز، وسار عليه في تفسيره. ويتجلى هذا
في مناقشته لآراء من سبقه من المفسرين، بالدليل والحجة، يقول ابن خلدون: "فلما رجع
الناس إلى التحقيق والتمحيص وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك
التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل
المغرب والأندلس حسن المنحى"^(٣٠١). وقال ابن حيان: "وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن
عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، أجل من صنّف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح
فيه والتحرير"^(٣٠٢).

لعل أبرز المصادر التي تأثر بها الإمام:

(٣٠١) انظر: مقدمة ابن خلدون (٥٥٥/١).

(٣٠٢) انظر: البحر المحيط في التفسير، ابن حيان الأندلسي (٢٠/١) المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة:

كتاب جامع البيان عن تأويل آيا القرآن، لمحمد بن جرير الطبري، أبو جعفر المؤرخ المفسر الإمام.

مثال:

تفسير الآية: ٢-٣ من سورة النساء (٧/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ أَمْوَالَهُنَّ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْحَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُنَّ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُمْ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾. وتفسير الآية: ٣-٤ من سورة المائدة (١٥٢/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدُومُ وَالْحَنْزِيرُ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تُخْشَوهُمْ وَاحْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تُعَلِّمُوهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

ومما تأثر به من المصادر أيضا:

شفاء الصدور المهذب في تفسير القرآن، لمحمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلية ثم البغدادي

النقاش، مثال:

تفسير الآية: ٤٣ من سورة النساء (٥٧/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾. وتفسير الآية: ١٢ من سورة المائدة (١٧٨/٢)، وهي قوله

تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبو محمد

مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي، مثال:

تفسير الآية: ٧-٩ من سورة النساء (١٢/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، وتفسير الآية: ١١٠ من سورة المائدة (٢٥٨/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَيْدِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَيْدِي وَتَرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِأَيْدِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِأَيْدِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

كتاب التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل، لأبو العباس المهدي، مثال:

تفسير الآية: ٣٧-٣٩ من سورة النساء (٥٢/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. وتفسير الآية: ١٠٣-١٠٥ من سورة المائدة (٢٤٩/٢)، وهي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿

المسألة الثانية

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي بين الإمامين

أولاً: التفسير بالمأثور عند الإمامين:

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ القرآن لصحابته فيفهمونه بسليقتهم، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، وكانوا إذا لم يجدوا في كتاب الله ولا في سنته صلى الله عليه وسلم -من بعده- تفسيراً اجتهدوا في الفهم لأنهم من خُصَّ العرب، يعرفون العربية، ويحسون فهمها، ويعرفون وجوه البلاغة فيها^(٣٠٣). ويقول ابن خلدون: "أنَّ القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه. وكان ينزل جملاً وآيات آيات..... وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو المبين لذلك كما قال تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٣٠٤) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يبيِّن المجمع ويميز النَّاسِخَ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه..... ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم"^(٣٠٥).

(٣٠٣) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (١٣/١) الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة ١٤٢١هـ-

٢٠٠٠م.

(٣٠٤) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣٠٥) مقدمة ابن خلدون (١/٥٥٤).

والمتتبع لتفسير الإمامين يجدهم متشابهين في منهجهم في التفسير بالمأثور حيث اعتمدوا على نصوص الوحي وأخبار الصحابة والتابعين في تفسير معاني الآيات، مبتدئين بأعلى مقامات التفسير، وهو الاستناد في تفسير الآية على آية أخرى من القرآن توضحها، فإن لم يوجد ما يفسرها من القرآن يتم الاعتماد على ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم على تفسير الصحابة رضوان الله عليهم، ومنهم: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، عائشة، ابن عباس، أبي موسى الأشعري، عبدالله بن عمر.....، ومن ثم التابعين.

نموذج تطبيقي من زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً﴾^(٣٠٦) قرأ الحسن: «يُورَثُ» بفتح الواو، وكسر الراء مع التشديد. وفي الكلاله أربعة أقوال: أحدها: أنها ما دون الوالد والولد، قاله أبو بكر الصديق. وقال عمر بن الخطاب: أتى علي حين وأنا لا أعرف ما الكلاله، فإذا هو: من لم يكن له والد ولا ولد، وهذا قول علي، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وقتادة، والفراء، وذكر الزجاج عن أهل اللغة، أن «الكلالة»: من قولهم: تكلمه النسب، أي: لم يكن الذي يرثه ابنه، ولا أباه. قال: والكلالة سوى الوالد والولد، وإنما هو كالإكليل على الرأس. وذكر ابن قتيبة عن أبي عبيدة أنه مصدر تكلمه النسب: إذا أحاط به. والابن والأب: طرفان للرجل. فإذا مات، ولم يخلفهما، فقد مات عن ذهاب طرفيه، فسمي ذهاب الطرفين: كلالة. والثاني: أن الكلالة: من لا ولد له، رواه ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، وهو قول طاووس. والثالث: أن الكلالة: ما عدا الوالد، قاله الحكم. والرابع: أن الكلالة: بنو العم الأبعد، ذكره ابن فارس، عن ابن الأعرابي^(٣٠٧).

(٣٠٦) سورة النساء، الآية: ١٢.

(٣٠٧) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٣٨٠/١)

نموذج تطبيقي من المحرر الوجيز:

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(٣٠٨) قال يسيع الحضرمي: كنت عند علي بن أبي طالب فقال له رجل: يا أمير المؤمنين رأيت قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحيانا؟ فقال علي رضي الله عنه: معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال جميع أهل التأويل^(٣٠٩).

ثانياً: التفسير بالرأي عند الإمامين:

ألف ابن الجوزي تفسيره على قواعد المنهج الأثري النظري في التفسير، وجمع فيه بين المأثور والرأي. يقول الدكتور عبد الله الجديع: " هذا الكتاب يعتمد على الأثر واللغة وبعض الرأي، ويسوق الأقوال في ذلك بأحسن سياق وأحصرها... " ^(٣١٠). أما ابن عطية فكان رحمه الله يكثر في تفسيره من ذكر وجوه الاحتمالات التي يمكن حمل الآية عليها ناقلاً ذلك عن المفسرين وغيرهم فيقوم بتفسير الآية بعبارة عذبة سهلة - مناقشا ما ينقله من آراء وكان كثير الاستشهاد بالشعر العربي، فعني بالشواهد الأدبية للعبارات كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عند ما يوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية كما أنه يتعرض كثيرا للقراءات وتوجيهها في آيات الذكر الحكيم ^(٣١١).

(٣٠٨) سورة النساء، الآية: ١٤١.

(٣٠٩) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (١٦٢/٢)

(٣١٠) المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع (٣٢٩/١) الناشر: مركز البحوث الإسلامية ليدز - بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

(٣١١) مقدمة المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (١٩/١)

المسألة الثالثة

موقف المفسرين من علمي اللغة والبلاغة وتناولهما لهما في تفسيريهما

أولاً: موقف ابن الجوزي من علمي اللغة والبلاغة وتعرضه لهما في تفسيره:

من أبرز أعلام اللغة الذين تأثر بهم ابن الجوزي وتعلم منهم الأدب واللغة، هو: شيخه الجواليقي (٣١٢). كما كان رحمه الله ينقل عن ابن الأعرابي (٣١٣)، مثالها: قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٣١٤)(٣١٥).

وكما كان يستشهد بأبيات الفرزدق، مثالها: قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٣١٦). فقال الفرزدق:

وبيتاً بيث الله نحل ولا تته
وبيت بأعلى إلبياء مشرف (٣١٧)

(٣١٢) هو: موهوب بن أحمد بن محمد بن الحضر بن الحسن بن محمد بن الجواليقي، أبو منصور بن أبي طاهر اللغوي، إمام أهل عصره في معرفة اللغة وكلام العرب، والمرجع إليه في ذلك، وكان ثقة صدوقاً حجة نبيلاً، وتوفي في منتصف محرم سنة أربعين وخمسمائة ببغداد. انظر: تاريخ بغداد (١٧٨/٢١).

(٣١٣) هو: محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي، أبو عبد الله، راوية، ناسب، علامة باللغة. من أهل الكوفة له تصانيف كثيرة، منها (أسماء الخيل وفرسانها - وتاريخ القبائل - والنوادر) انظر: الأعلام للزركلي (١٣١/٦).

(٣١٤) سورة النساء، الآية: ١٢.

(٣١٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٣٨٠/١).

(٣١٦) سورة المائدة، الآية: ٢١.

(٣١٧) انظر: المرجع السابق (٥٣٢/١).

وقد تناول الإمام ابن الجوزي في تفسيره الأساليب البلاغية والبيانية وإظهار بنية الكلمة، وإيضاح

معاني الألفاظ من خلال استشهاده بالشعر الذي يهمله في تفسيره مما يدل على اهتمامه به، وفيما يلي

أمثلة على ذلك من خلال سورتي النساء والمائدة:

أمثلة على الناحية البيانية والبلاغية:

١. الاستفهام: قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ

عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [سورة

النساء: الآيات ٥٣ إلى ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ هذا استفهام معناه الإنكار،

فالتقدير: ليس لهم. وقال الفراء: قوله: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ جوابٌ لجزءٍ مضمّرٍ، تقديره:

ولئن كان لهم نصيب لا يؤتون الناس نقيراً^(٣١٨).

٢. بلاغة الحرف: قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾

[سورة النساء (٤): آية ٤١]. وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ قَالَ الزَّجَاجُ: معنى

الآية فكيف يكون حال هؤلاء يوم القيامة، فحذف الحال، لأن في الكلام دليلاً عليه. ولفظ «كيف»

لفظ الاستفهام، ومعناها: التوبيخ^(٣١٩).

أمثلة على بنية الكلمة:

الاشتقاق: قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ قَالَ الزَّجَاجُ: اتركوه. واشتقاقه في اللغة: كونوا جانباً منه^(٣٢٠).

أمثلة على ناحية دلالة اللفظ:

(٣١٨) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٤٢٠/١).

(٣١٩) انظر: المرجع السابق (٤٠٧/١).

(٣٢٠) انظر: المرجع السابق (٥٨٢/١).

١ . المجاز: قوله تعالى: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ قال ابن عباس: من تزين الشيطان. فإن قيل: كيف نُسب إليه،

وليس من فعله؟ فالجواب: أن نسبته إليه مجاز، وإنما نسب إليه، لأنه هو الداعي إليه، المزين له، ألا

تري أن رجلاً لو أغرى رجلاً بضرب رجل، لجاز أن يقال له: هذا من عملك (٣٢١).

٢ . العام والخاص: وعامة العلماء ذهبوا إلى أن قوله تعالى: وَأَجَلٌ لَكُمْ ما وراء ذلكم تحليل ورد بلفظ

العموم، وأنه عموم دخله التخصيص، والمخصص له: نهي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تنكح المرأة

على عمته، أو على خالتها. وليس هذا على سبيل النسخ (٣٢٢).

ثانياً: موقف ابن عطية من علمي اللغة والبلاغة وتعرضه لهما في تفسيره:

تتضح عناية ابن عطية التامة باللغة والنحو من خلال بيان معاني المفردات وإعراب الكلمات،

وتصريف المشتقات، وذكر الوجوه الإعرابية في الآيات، وبيان المذاهب النحوية والترجيح بينها. ويقول في

مقدمة تفسيره: "وسرود التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو

معنى، أو قراءة، وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين" (٣٢٣). وممن شهد

له ببراعته في اللغة الإمام السيوطي، حيث قال عنه: "وألف تفسير القرآن العظيم، وهو أصدق شاهد له

بإمامته في العربية وغيرها" (٣٢٤).

من أبرز أعلام اللغة الذين تأثر بهم ابن عطية في تفسيره:

(٣٢١) انظر: المرجع السابق (٥٨٢/١)

(٣٢٢) انظر: المرجع السابق (٣٩٢/١)

(٣٢٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٣٤/١).

(٣٢٤) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي (٧٣/٢) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية

- لبنان / صيدا.

١. أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء^(٣٢٥)، كتابه (معاني القرآن) مثالها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلْ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: آية ١٩] (٣٢٦).

٢. أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج^(٣٢٧)، كتابه (معاني القرآن) مثالها: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة المائدة: آية ٣٩] (٣٢٨).

٣. سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتابه (الكتاب) مثالها: قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا * وَلَا تُوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [سورة النساء: الآيات ٤ إلى ٥] (٣٢٩).

(٣٢٥) وكتابه: معاني القرآن، وهو أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء كان من أعلام أهل الكوفة بالنحو بعد أستاذه الكسائي وقال فيه أبو العباس ثعلب: لولا الفراء ما كانت عربية، لأنه خلصها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد، توفي سنة ٢١٧ هـ. انظر: طبقات النحويين واللغويين (١/ ١٣٢).

(٣٢٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٢٦/٢)

(٣٢٧) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي؛ كان من أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنف كتاباً في معاني القرآن وله كتاب الأمالي، وكتاب ما فسر من جامع المنطق، وكتاب الاشتقاق، وكتاب العروض، توفي سنة (٩٢٣هـ). انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان (٥٠/١).

(٣٢٨) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (١٨٩/٢).

(٣٢٩) انظر: المرجع السابق (٩/٢).

٤ . الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٣٣٠)، كتابه (العين) مثالها: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ

وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْعَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿سورة النساء: آية ٤٣﴾ [٣٣١].

٥ . أبي العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني، كتابه (الفصيح)، مثالها: قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلَا يَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿سورة النساء: الآيات ٧ إلى ٩﴾ [٣٣٢].

أمثلة على الأوجه البيانية والبلاغية:

الاستفهام: مثاله قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا * فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَركَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَصْلَ اللَّهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿سورة النساء: الآيات ٨٧ إلى ٨٨﴾. وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا؟ ظاهره الاستفهام ومعناه تقرير الخبر، تقديره: لا أحد أصدق من الله تعالى، لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علته

(٣٣٠) هو: الخليل بن أحمد الأزدي الفراهيدي، ويقال الباهلي، أبو عبد الرحمن البصري النحوي، كان يعرف علم الإيقاع والنعيم، ففتح له ذلك علم العروض. قيل: أنه توفي بعد ١٦٠ هـ وقيل ١٧٠ هـ أو بعدها. انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٢٩/٧)

(٣٣١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٥٩/٢).

(٣٣٢) انظر: المرجع السابق (١٢/٢).

الخوف والرجاء أو سوء السحبة، وهذه منفية في حق الله تعالى وتقدست أسماءه، والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان المخبر موافقا لما في قلبه، وللأمر المخبر عنه في وجوده، وحديثاً نصب على التمييز (٣٣٣).

أمثلة على بنية الكلمة:

الميزان الصرفي، مثاله: قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ * قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ * مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة المائدة: الآيات ٩٩ إلى ١٠٢]. وقال الأخصب: أشياء أصلها أشياء على وزن أفعلا، استثقلت اجتماع الهمزتين فأبدلت الأولى ياء لانكسار ما قبلها ثم حذفت الياء استخفافا، ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياء شيئا مثل هين وأهوناء (٣٣٤).

أمثلة على دلالة اللفظ:

العام والخاص، مثاله، قوله: قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة المائدة: الآيات ١٦ إلى

(٣٣٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٨٨/٢).

(٣٣٤) انظر: المرجع السابق (٢٤٦/٢).

١٧]. وقوله تعالى: وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عموم معناه الخصوص فيما عدا الذات والصفات والمحالات،
والشيء في اللغة هو الموجود (٣٣٥).

مصادر مشتركة بين الإمامين في اللغة: نجد من خلال البحث في التفسيرين أن الإمامين قد اشتركوا في
الأخذ عن علم من أعلام اللغة وهو: المبرد (٣٣٦)، في كتابه (المقتضب). ومثاله عند ابن الجوزي: قوله
تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُفْرٍ فَإِنَّ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ
قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: آية ١٤١] (٣٣٧). ومثاله عند ابن عطية: قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ
بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ
أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
*﴾ [سورة المائدة: الآيات ٤٦ الى ٤٨] (٣٣٨).

(٣٣٥) انظر: المرجع السابق (١٧١/٢).

(٣٣٦) هو: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب
والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه (الكامل - المذكر والمؤنث - والمقتضب) توفي سنة (٢٨٦هـ). انظر: الأعلام للزركلي
(١٤٤/٧).

(٣٣٧) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٤٤٨/١).

(٣٣٨) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (١٩٨/٢).

المسألة الرابعة

روايتهما للقراءات ودرجة احتجاجهما بها

أولاً: رواية ابن الجوزي للقراءات ودرجة احتجاجه بها:

أفاد الإمام الذهبي أن الإمام ابن الجوزي قد تلقى القراءات وسنه نحو الثمانين، إشارة منه إلى علو همته^(٣٣٩)، ويتضح موقفه -رحمه الله- من القراءات بقوله: "اعلم أنه لو اتسع العمر؛ لم أمنع من الإيغال في كل علم إلى منتهاه، غير أن العمر قصير، والعلم كثير: فينبغي للإنسان أن يقتصر من القراءات إذا حفظ القرآن على العشر..."^(٣٤٠). مما يعني أنه يرى أن الاختصار على القراءات العشر هو الأجدى لطالب العلم، بل أن الاهتمام الزائد بالقراءات والغلو بها من تلبيس الشيطان، قال في تلبيس إبليس: "فمن ذلك أن أحدهم يشتغل بالقراءات الشاذة وتحصيلها فيفني أكثر عمره في جمعها وتصنيفها والأقراء بها ويشغله ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات..."^(٣٤١). والنصوص السابقة تدل على أن القراءات المتواترة عند ابن الجوزي هي العشر، ويؤيد ذلك أمران:

- الأول: أنه قرأ القراءات العشر على الإمام المقرئ ابن الباقلاني^(٣٤٢).
- الثاني: أنه لا يميز القراءة ولا الإقراء بالشواذ؛ يقول في التلبيس: "ومن ذلك أن أحدهم يقرأ في محرابه بالشاذ ويترك المتواتر المشهور والصحيح عند العلماء أن الصلاة لا تصح بهذا الشاذ..."^(٣٤٣).

(٣٣٩) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٦٢/١٥).

(٣٤٠) صيد الخاطر، ابن الجوزي (٤٤٣/١).

(٣٤١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (١٠١/١) الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٣٤٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي (٤٦٢/١٥).

(٣٤٣) تلبيس إبليس، ابن الجوزي (١٠١/١).

كما أنه لا يميز جمع القراءات بالحرف، فيقول: "ومنهم من يجمع القراءات فيقول ملك ملك ملاك وهذا لا يجوز لأنه إخراج للقرآن عن نظمته..."^(٣٤٤). وكان أهم مصدر للتفسير في القراءات هم شيوخه الذين درس عليهم، وتعلم على أيديهم هذا العلم، ثم ما لبث أن تفوق عليهم جميعاً، وألف في هذا العلم كتاباً يسمى: "الإشارة إلى القراءة المختارة" أربعة أجزاء مما يدل على تضلعه وتمكنه من هذا العلم.

والشيوخ الذين تلقاه عليهم هم:

أبو الحسن علي بن عبد الله الزاغوني، وأبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرون المقرئ، وأبو عبد الله بن الخياط المقرئ، وأبو الفضل أحمد بن الحسين المقرئ، وأبو منصور عبد الرحمن القزاز، وأبو حفص عمر بن ظفر بن أحمد المقرئ. وقد قرأ بالروايات في كبره على ابن الباقلاني بواسطة حين كان منفياً بها، وقرأ بالعشر على أبي بكر محمد بن الحسن المزني. ثم تتبع بعد ذلك أصحاب القراءات المشهورة، وكانت مصادره في تفسيره منهم، ومن هؤلاء: ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وحفص، وطلحة وغيرهم كثير كفتادة والفراء والأخفش.

والمتتبع لمنهجه في تفسيره يجده يوظف كل القراءات الواردة في الآية، ويبين مواطنها، ويذكر المشهور منها والشاذ، مع الإشارة إلى قارئها، وكان نادراً ما يرجح بينهما ويبين سبب الترجيح. ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: آية ٤٠]: وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً﴾ قرأ ابن كثير، ونافع: «حسنة» بالرفع. وقرأ الباقر بالنصب. قال الزجاج: من رفع، فالمعنى: وإن تحدث حسنة، ومن نصب، فالمعنى: وإن تك فعلته حسنة. قوله تعالى: يُضَاعِفْهَا قرأ ابن عامر، وابن كثير: «يُضَاعِفْهَا» بالتشديد من غير ألف. وقرأ الباقر: «يُضَاعِفْهَا» بألف مع كسر العين. قال ابن قتيبة: يضاعفها بالألف: يعطي مثلها مرات، ويضعفها بغير

(٣٤٤) المرجع السابق.

ألف: يعطي مثلها مرة^(٣٤٥). ومثاله: قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصًا فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ [سورة المائدة: آية ٤٥]: وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسِّن بالسِّن، ينصبون ذلك كله، ويرفعون «والجروح». وكان نافع، وعاصم، وحمزة ينصبون ذلك كله، وكان الكسائي يقرأ: «أن النفس بالنفس» نصباً، ويرفع ما بعد ذلك^(٣٤٦).

ثانياً: رواية ابن عطية للقراءات ودرجة احتجاجه بها:

ابن عطية من المفسرين الأندلسيين الذين أولوا القراءات عناية خاصة، وقد أشار -رحمه الله- في مقدمة كتابه إلى أنه عمد إيراد جميع القراءات، فقال رحمه الله: "... وقصدت إيراد جميع القراءات: مستعملها وشاذها...".^(٣٤٧) وفجاء تفسيره بمثابة الديوان الجامع للقراءات بأنواعها، مع الدقة في عزوها إلى أصحابها وهذا الغالب، إلا أنه أورد قراءات شاذة كثيرة قد لا ينتقدها، بل كثيراً ما يوجهها حتى يظن القارئ أنها ثابتة. وكما نقل عن طبقات مختلفة من القراء، وأصحاب قراءة مستعملة وغير مستعملة، ولم يهتم بإسنادها بل جعلها عربية عن ذلك، وأكثر ما اهتم به المصنف؛ نقل ما نسب إلى القراء السبعة، حيث كان مقدماً لها على غيرها في الغالب، وأما عن موضع ذكر الاختلاف في القراءة عنده؛ فقد نص في مقدمة كتابه على منهجه في ذلك فقال: "وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة"^(٣٤٨).

(٣٤٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٤٠٦/١).

(٣٤٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٥٥٣/١).

(٣٤٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٣٤/١).

(٣٤٨) انظر: المرجع السابق.

كما يتبين من خلال كتابه أنه لا يحتج بالقراءات الشاذة في الأحكام، ومن الأمثلة التي تثبت ذلك: مثاله: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة المائدة: الآيات ٨٨ الى ٨٩]: وقرأ الجمهور «أو كسوتهم» بكسر الكاف يراد به كسوة الثياب وقرأ سعيد بن المسيب وأبو عبد الرحمن وإبراهيم النخعي «أو كسوتهم» بضم الكاف، وقرأ سعيد بن جبير ومحمد بن السميع اليماني «أو كأسوتهم» من الأسوة قال أبو الفتح كأنه قال أو بما يكفي مثلهم فهو على حذف المضاف بتقدير أو ككفاية أسوتهم، قال وإن شئت جعلت الأسوة هي الكفاية فلم تحتج إلى حذف مضاف. وقال القاضي أبو محمد: وفي هذا نظر، والقراءة مخالفة لخط المصحف، ومعناها على خلاف ما تأول أهل العلم من أن الحانث في اليمين بالله مخير في الإطعام أو الكسوة أو العتق، والعلماء على أن العتق أفضل ذلك ثم الكسوة ثم الإطعام^(٣٤٩). وقد تنوعت مصادر ابن عطية التي اعتمدها في إيراد القراءات المختلفة في كتابه، وفيما يلي عرض لبعض هذه المصادر:

- ١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبو الفتح عثمان بن جني الموصلي.
- ٢- الحجة في علل القراءات السبع، لأبي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان الإمام أبي علي الفارسي.
- ٣- التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو بن عثمان بن سعيد بن عثمان، أبي عمرو الداني.

(٣٤٩) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/٢٣٠).

أمثلة تطبيقية: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء: آية ١]: وقالت طائفة معناه: تَسَاءَلُونَ بِهِ حقوقكم وتجعلونه مقطعا لها وأصله: «تساءلون»، فأبدلت التاء الثانية سينا وأدغمت في السين، وهذه قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وابن عمرو.

وقرأ الباقون - «تساءلون» - بسين مخففة وذلك لأنهم حذفوا التاء الثانية تخفيفا فهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى لاجتماع حروف متقاربة. وقال ابن مسعود - «تسألون» - خفيفة بغير ألف (٣٥٠). ومثاله: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتِغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْبُدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة: الآيات ١ الى ٢]: وقوله تعالى: ﴿شَنَا نُ قَوْمٍ﴾: «شنان» متحركة النون، قراءة ابن كثير وأبو عمرو وهمزة والكسائي. و«شنان» ساكنة النون، قراءة ابن عامر. واختلف عن عاصم ونافع، يقال شنت الرجل شنأ بفتح الشين وشنأنا بفتح النون وشنأنا بسكون النون والفتح أكثر (٣٥١).

(٣٥٠) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٤/٢).

(٣٥١) انظر: المرجع السابق (١٤٩/٢)

المسألة الخامسة

المقارنة بين المفسرين في تعرضهما للأحكام الفقهية.

أولاً: تعرض ابن الجوزي للأحكام الفقهية:

من العلوم التي برز فيها الإمام ابن الجوزي علم الفقه، قال ابن رجب: "صحب أبا الحسن بن الزاغوني، ولازمه، وعلق عنه الفقه والوعظ"^(٣٥٢). وكذا ذكر ابن النجاة أنه بعد وفاة ابن الزاغوني قرأ الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري، والقاضي أبي يعلى الصغير، وأبي حكيم النهرواني. وصار مفيد المدرسة^(٣٥٣). وكان ابن الجوزي معيدا عند الشيخ أبي حكيم النهرواني. وكان قد قرأ عليه الفقه أيضا والفرائض بالمدرسة التي بناها ابن السمحل بالمأمونية. وكان لأبي حكيم مدرسة بباب الأزج فلما احتضر أسندها إلى أبي الفرج فأخذها جميعا بعده^(٣٥٤). والمتبع لآيات الأحكام في تفسير ابن الجوزي يجده يتعرض دائماً للأحكام الفقهية التي تنطوي عليها الآيات، كما يذكر الآراء التي قيلت فيها، وقلما كان يدلي برأيه أو يرتجح بين هذه الأقوال اللهم أن يكون ناقلاً لآراء العلماء. ومثال على ذلك:

١. قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ﴾^(٣٥٥). فقال ابن الجوزي: "واختلفوا: هل يعتبر في الرضاع العدد، أم لا؟ فنقل حنبل، عن أحمد: أنه يتعلق التحريم بالرضعة الواحدة، وهو قول عمر، وعلي، وابن عباس، وابن عمر، والحسن، وطاوس، والشعبي، والنخعي، والزهري، والأوزاعي، والثوري، ومالك، وأبي حنيفة، وأصحابه. ونقل محمد بن العباس، عن أحمد: أنه يتعلق

(٣٥٢) ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب (٤٦٥/٢).

(٣٥٣) انظر: المرجع السابق.

(٣٥٤) انظر: المرجع السابق (٤٦٩/٢).

(٣٥٥) سورة النساء الآية: ٢٣.

التحريم بثلاث رضعات. ونقل أبو الحارث، عن أحمد: لا يتعلق بأقل من خمس رضعات متفرقات، وهو قول الشافعي^(٣٥٦).

٢. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ...﴾^(٣٥٧). فقال ابن الجوزي: "واختلفوا في ذبائح من دان باليهودية والنصرانية من عبدة الأوثان، فروي عن ابن عباس أنه سُئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: لا بأس بها، وتلا قوله تعالى: وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ وهذا قول الحسن، وعطاء بن أبي رباح، والشعبي، وعكرمة، وقتادة، والزهري، والحكم، وحماد. وقد روي عن علي، وابن مسعود في آخرين أن ذبائحهم لا تحل. ونقل الخرقى عن أحمد في نصارى بني تغلب روايتين. إحداهما: تباح ذبائحهم، وهو قول أبي حنيفة، ومالك. والثانية: لا تباح. وقال الشافعي: من دخل في دين أهل الكتاب بعد نزول القرآن، لم يبع أكل ذبيحته"^(٣٥٨).

ثانيا: تعرض ابن عطية للأحكام الفقهية:

أشرنا في ترجمة الإمام ابن عطية إلى أنه مالكي المذهب، ومن كبار فقهاءهم وأئمتهم، وقد سرد في تفسيره أقوال العلماء المالكية في المسائل الفقهية، كما أنه يعرض اجتهادات الفقهاء من المذاهب الأخرى، مما يدل على موضوعيته وبعده عن التعصب المذهبي. ومثال على ذلك:

١. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ

(٣٥٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٣٨٨/١).

(٣٥٧) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٣٥٨) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٥١٨/١).

النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا عَفُورًا ﴿٣٥٩﴾.

فقال ابن عطية: " واختلف أهل العلم في موقعها هنا. فمالك رحمه الله يقول: اللفظة هنا على أتم عمومها تقتضي الوجهين، فالملامس بالجماع يتيمم، والملامس باليد يتيمم، لأن اللمس نقض وضوءه، وقالت طائفة: هي هنا مخصصة للمس اليد، والجنب لا ذكر له إلا مع الماء، ولا سبيل له إلى التيمم، وإنما يغتسل الجنب أو يدع الصلاة حتى يجد الماء، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه وعن عبد الله بن مسعود وغيرهما، وقال أبو حنيفة: هي هنا مخصصة للمس الذي هو الجماع، فالجنب يتيمم، والملامس باليد لم يجز له ذكر فليس بحدث، ولا هو ناقض لوضوءه، فإذا قبل الرجل امرأته للذة لم ينتقض وضوءه، ومالك رحمه الله يرى: أن اللمس ينتقض إذا كان للذة، ولا ينتقض إذا لم يقصد به اللذة، ولا إذا كان لابنة أو لأم، والشافعي رحمه الله يعمم لفظة النِّسَاءِ، فإذا لمس الرجل عنده أمه أو ابنته على أي وجه كان انتقض وضوءه، وعدم وجود الماء يترتب للمريض والمسافر حسبما ذكرناه، ويترتب للصحيح الحاضر بالغلاء الذي يعم جميع الأصناف" (٣٦٠).

٢. قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣٦١). فقال ابن عطية: " وقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ عطف على الطعام المحلل، والإحصان في كلام العرب وفي تصريف الشرع مأخوذ من المنعة ومنه الحصن، وهو مترتب بأربعة أشياء: الإسلام والعفة والنكاح والحرية، فيمتنع في هذا الموضع أن يكون الإسلام لأنه قد نص أنهن

(٣٥٩) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٣٦٠) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥٩/٢).

(٣٦١) سورة المائدة: الآية ٥.

من أهل الكتاب ويمتنع أن يكون النكاح لأن ذات الزوج لا تحل، ولم يبق إلا الحرية والعفة فاللفظة
تحتملهما، واختلف أهل العلم بحسب هذا الاحتمال فقال مالك رحمه الله ومجاهد وعمر بن الخطاب
وجماعة من أهل العلم «المحصنات» في هذه الآية الحرائر فمنعوا نكاح الأمة الكتابية، وقالت جماعة
من أهل العلم: «المحصنات» في هذه الآية العفائف، منهم مجاهد أيضا والشعبي وغيرهم فجازوا نكاح
الأمة الكتابية وبه قال سفيان والسدي، وقال الشعبي: إحصان الذمية ألا تزني وأن تغتسل من الجنابة،
وقال أبو ميسرة: مملوكات أهل الكتاب بمنزلة حرائرهن العفائف منهن حلال نكاحهن" (٣٦٢).

المسألة السادسة

موقف كل منهما من الإسرائيليات.

أولا: موقف ابن الجوزي من الإسرائيليات:

لم يغل تفسير ابن الجوزي من الأخبار الإسرائيلية عن رواة اشتهروا بها مثل: كعب الأخبار، وقد
قال عنه: " كان كعب من أختيار الأخبار " (٣٦٣)، ووهب بن منبه، والسدي وغيره. وله في مقدمة تفسيره
ما يكشف عن موقفه من الإسرائيليات التي أوردتها في تفسيره حيث قال: " ومن إيراد طائفة غير قليلة من
الأخبار الإسرائيلية الغريبة التي أغنانا الله عنها بما هو أصح منها وأنفع وأبلغ وغالبه مما لا يتعلق به
كبير فائدة، ولا حاصل له مما ينفع به في الدين ". ومثال على ذلك:

١. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (٣٦٤). قال ابن

(٣٦٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (١٥٩/٢).

(٣٦٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر (٣٥٥/١٣).

(٣٦٤) سورة النساء: الآية ١.

الجوزي: "و«من» في قوله تعالى: وَخَلَقَ مِنْهَا التَّبَعِيضَ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ. وقال ابن بحر: «منها»، أي: من جنسها. واختلفوا أي وقت خلقت له، على قولين: أحدهما: أنها خلقت بعد دخوله الجنة، قاله ابن مسعود، وابن عباس. والثاني: قبل دخوله الجنة، قاله كعب الأحبار، ووهب، وابن إسحاق. قال ابن عباس: لما خلق الله آدم، ألقى عليه النوم، فخلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، فلم تؤذ بشيء، ولو وجد الأذى ما عطف عليها أبداً، فلما استيقظ قيل: يا آدم ما هذه؟ قال: حواء" (٣٦٥).

٢. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣٦٦). فقال مجاهد: هم النصارى. قال وهب بن منبه: لما وُلد عيسى لم يبق صنم إلا حُرَّ لوجهه، فاجتمعت الشياطين إلى إبليس، فأخبروه، فذهب فطاف أقطار الأرض، ثم رجع، فقال: هذا المولود الذي ولد من غير ذكر، أردت أن أنظر إليه، فوجدت الملائكة قد حُفَّتْ بأُمة، فليتلخف عندي اثنان من مردتك، فلما أصبح. خرج بهما في صورة الرجال، فأتوا مسجد بني إسرائيل وهم يتحدثون بأمر عيسى، ويقولون: مولود من غير أب. فقال إبليس: ما هذا بيشر، ولكن الله أحب أن يتمثل في امرأة ليختبر العباد، فقال أحد صاحبيه: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أحب أن يتخذ ولداً. وقال الثالث: ما أعظم ما قلت، ولكن الله أراد أن يجعل لها في الأرض، فألقوا هذا الكلام على ألسنة الناس، ثم تفرقوا، فتكلم به الناس. وقال محمد بن كعب: لما رفع عيسى اجتمع مائة من علماء بني إسرائيل، وانتخبوا منهم أربعة، فقال أحدهم: عيسى هو الله كان في الأرض ما بدا له، ثم صعد إلى السماء، لأنه لا يحيي الموتى ولا يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله. وقال الثاني: ليس كذلك، لأننا قد عرفنا عيسى، وعرفنا أمه، ولكن ابن الله. وقال الثالث: لا

(٣٦٥) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (٣٦٦/١).

(٣٦٦) سورة المائدة: الآية ٧٣.

أقول كما قلتما، ولكن جاءت به أمه من عمل غير صالح. فقال الرابع: لقد قلت قبيحاً، ولكنه عبد

الله ورسوله، وكلمته، فخرجوا، فاتبع كل رجل منهم عُتُق من الناس" (٣٦٧).

ثانياً: موقف ابن عطية من الاسرائيليات:

أشار الإمام ابن عطية إلى موقفه من الإسرائيليات في مقدمة كتابه، حيث قال: " لا أذكر من

القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به" (٣٦٨). مما يعني أنه لم يكثر من هذه الأخبار في تفسيره، كما نجده

قد تناول الكثير من هذه الروايات بالنقد والتمحيص. ومثال على ذلك:

١. قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكَلِيمًا﴾ (٣٦٩). فقال ابن عطية: " وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكليف ولا تحديد ولا

تجويز حلوث ولا حروف ولا أصوات، والذي عليه الراسخون في العلم: أن الكلام هو المعنى القائم

في النفس، ويخلق الله لموسى أو جبريل إدراكاً من جهة السمع يتحصل به الكلام، وكما أن الله تعالى

موجود لا كالموجودات، معلوم لا كالمعلومات فكذلك كلامه لا كالكلام، وما روي عن كعب الأخبار

وعن محمد بن كعب القرظي ونحوهما: من أن الذي سمع موسى كان كأشد ما يسمع من الصواعق،

وفي رواية أخرى كالرعد الساكن فذلك كله غير مرضي عند الأصوليين" (٣٧٠).

٢. قال تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا

وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٣٧١). فقال جمهور المفسرين: نزلت المائدة، ثم اختلفت الروايات

في كيفية ذلك، فروى الشعبي عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً، وقال

(٣٦٧) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي (١/٥٧١-٥٧٢).

(٣٦٨) المحرر الوجيز، ابن عطية (١/٣٤).

(٣٦٩) سورة النساء: الآية (١٦٤).

(٣٧٠) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/١٣٧).

(٣٧١) سورة المائدة: الآية ١١٤

عطية: المائدة سمكة فيها طعم كل طعام، قال ابن عباس نزل خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أين ما نزلوا إذا شاءوا، وقاله وهب بن منبه، قال إسحاق بن عبد الله: نزلت المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، قال: فسرق منها بعضهم فرفعت، وقال عمار بن ياسر: سألوا عيسى عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفد، فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم وما لم تحبوا أو تحنوا، فإن فعلتم عذبتهم قال فما مضى يوم حتى خبوا وخانوا فمسخوا قرده وخنزير، وقال ابن عباس في المائدة أيضا، كان طعام ينزل عليهم حيث ما نزلوا، وقال عمار بن ياسر: نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة، وقال ميسرة: كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام إلا اللحم. قال القاضي أبو محمد: وكثر الناس في قصص هذه المائدة بما رأيت اختصاره لعدم سنده وقال قوم: لا يصح أن لا تنزل المائدة لأن الله تعالى أخبر أنه منزلها (٣٧٢).

المسألة السابعة

عنايتهما بعلوم القرآن في تفسيريهما

أولا: عناية ابن الجوزي بعلوم القرآن:

١. علم أسباب النزول:

نجد في القرآن الكريم آيات نزلت إثر وقوع حادثة اقتضى وقوعها نزول آيات، وهذه الحوادث التي نشأ عنها نزول هذه الآيات تسمى أسباب النزول إذ أن السبب عبارة عن واقعة حدثت في زمن النبي ﷺ، واقتضت إنزال آية أو آيات تبين حكم الله فيها، أو عبارة عن سؤال وجه إلى النبي ﷺ فتنزل الآية أو الآيات مجيبة عن هذا السؤال، وقد أولى الإمام ابن الجوزي أسباب النزول عناية فائقة؛ فهو من العلماء الذين أفردوا

(٣٧٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية (٢٦١/٢)

أسباب النزول بمؤلف مستقل سماه: (أسباب نزول القرآن). أما عن كتابه زاد المسير فقد كان أول مصادره في هذا العلم هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد فسروا القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما شاهدوه من أحداث ووقائع نزل بها القرآن، وأشهرهم: عبدالله بن عباس وعلي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود وهو أكثرهم رواية ومعرفة، وذلك بسبب نشأته في بيت النبوة، وملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم، وشهوده كثيرا من المواقف والظروف والملايسات والحوادث التي تنزل فيها الآيات.

مثال على ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾^(٣٧٣). فقال ابن الجوزي: "في سبب نزول هذا الكلام قولان: أحدهما: أن رجلاً من الأنصار كان مريضاً فلم يستطع أن يقوم فيتوضأ، ولم يكن له خادم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له ذلك، فنزلت: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ قاله مجاهد. (٢٨٩) والثاني: أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابتهم جراحات، ففشت فيهم وابتلوا بالجنابة فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ قاله إبراهيم النخعي^(٣٧٤).

والآخر: عناية ابن عطية بعلوم القرآن: مما يدل على اهتمام ابن عطية بعلوم القرآن قوله: وهو يتحدث عن إعجاز القرآن: «لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»^(٣٧٥).

فالقرآن العظيم يختلف عن كلام البشر - مهما علا وارتنقى «حتى كلام رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم، وأشرقت نفسه بنور النبوة والوحي، وصيغ على أكمل ما خلق الله، فإنه مع تحليقه في سماء البيان، وسموه على كلام كل إنسان، لا يزال هناك بون بعيد بينه وبين القرآن»^(٣٧٦).

(٣٧٣) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٣٧٤) زاد المسير، ابن الجوزي (١/٤٠٨).

(٣٧٥) ينظر: تفسير ابن عطية، (١/٥٢).

(٣٧٦) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، (٢/٢٩٨).

٢. علم أسباب النزول والمكي والمدني:

المشهور عند العلماء أن سورة التكاثر مكية كما قاله السيوطي في الإتقان، وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما (٣٧٧)، والزهري، وابن جرير الطبري، والسمرقندي، والنسفي، وابن كثير، والزركشي، والثعالبي، والزرقاني وغيرهم (٣٧٨). بل إن ابن عطية قال: مكية، ولا أعلم فيها خلافاً (٣٧٩). ويغلب على المفسرين القول بأنها مكية دون ذكر الدليل على ذلك، حيث إن تصدير تفسير السورة بذكر نوعها هو السمة الغالبة، ومنهم من ذكر الدليل على كونها مكية بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في مكة (٣٨٠). **الراجح والله أعلم**: هو القول بمدنية سورة التكاثر. -مثال يوضح تناول ابن عطية لأسباب النزول:

أ. عندما قدّم سادة قريش للنبي صلى الله عليه وسلم عرضاً، طمع في إيمانهم، فحدثته نفسه بما طلبوا إليه، فأنزل الله تعالى إليه قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ...﴾ الآية. وفي هذا المعنى قال ابن عطية: "سبب هذه الآية أن عظماء الكفار قيل: من أهل مكة، وقيل: عيينة بن حصن وأصحابه، والأول أصوب، لأن السورة مكية، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، يريدون عمار بن ياسر وصهيب بن سنان وسلمان الفارسي وابن مسعود وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه، وقالوا: إن ربح جباهم تؤذينا، فنزلت الآية بسبب ذلك. وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إليهم، وجلس بينهم، وقال: الحمد لله

(٣٧٧) ينظر: الدر المنثور للسيوطي: ٨/ ٦٠٩.

(٣٧٨) ينظر: تنزيل القرآن للزهري: (٢٣)، جامع البيان للطبري: (٣٠/ ٢٨٣)، تفسير السمرقندي: (٣/ ٥٨٨)، تفسير النسفي: (٤/

٣٥٤)، تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤/ ٥٤٥، البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ١٩٣، الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي:

٤/ ٤٣٨، مناهل العرفان للزرقاني: ١/ ١٤٤.

(٣٧٩) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٥/ ٥١٨.

(٣٨٠) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني: ٦/ ٢٧٥، معالم التنزيل للبغوي: ٤/ ٥٢٠، الكشاف للزمخشري: ٤/ ٧٩٧.

الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه ... وروى سلمان أن المؤلفه قلوبهم عيينة بن

حصن والأقرع بن حابس وذويهم قالوا ما ذكر فنزلت الآية في ذلك" (٣٨١).

ب. مثال لتناول ابن الجوزي وابن عطية لأسباب النزول مقارناً بأقوال المفسرين، وسبب نزول قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾. فيمن نزلت هذه الآية؟

قال ابن جزري رحمه الله تعالى: «روي: أن الذي شرح الله صدره للإسلام: علي بن أبي

طالب وحمزة؛ والمراد بالقاسية قلوبهم: أبو لهب وأولاده. واللفظ أعم من ذلك» (٣٨٢). وهذا

الذي ذكره ابن جزري: من أن الذي شرح الله صدره للإسلام علي بن أبي طالب وحمزة والمراد

بالقاسية قلوبهم أبو لهب وأولاده. ذكره بصيغة التمريض الماوردي (٣٨٣) وابن عطية (٣٨٤) وابن

الجوزي (٣٨٥) والقرطبي (٣٨٦) والألوسي (٣٨٧) والثعالبي (٣٨٨). وأبو حيان (٣٨٩) وذكره الواحدي

في أسباب النزول (٣٩٠). ولم أقف عليه عند ابن جرير وابن أبي حاتم والبغوي وابن كثير.

والأسباب كما هو معلوم موقوفة على السماع، فإذا صح السماع قلنا بها وإلا فلا، ولذا فإن

(٣٨١) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية: (٣/ ٥١٢). وانظر أسباب النزول للواحدي: (١٧١).

(٣٨٢) ينظر: التسهيل في علوم التنزيل لابن جزري: ص (٦٢٤).

(٣٨٣) ينظر: النكت والعيون تفسير الماوردي (٥/ ١٢١).

(٣٨٤) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ٥١٨).

(٣٨٥) ينظر: زاد المسير (٧/ ١٧٣).

(٣٨٦) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٢٤٨).

(٣٨٧) ينظر: روح المعاني (٢٣/ ٢٥٧).

(٣٨٨) ينظر: تفسير الثعالبي (٨/ ٢٢٩).

(٣٨٩) ينظر: تفسير البحر المحيط (٧/ ٤٠٥).

(٣٩٠) ينظر: أسباب النزول (١/ ٢٤٨).

الراجح - والله أعلم - هو ما رجحه جمهور المفسرين من أن الآية عامة، وهو اختيار ابن الجوزي وابن عطية.

٣. النسخ والمنسوخ عند ابن الجوزي وابن عطية مقارنةً بأقوال المفسرين وتطرق ابن عطية للنسخ والمنسوخ في تفسيره كثيراً ومثاله: [القول بنسخ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾] (٣٩١).

أ. قيل: إن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ليس بمنسوخ بآية السيف؛ لأنه خبر لا نسخ فيه.
ب. قيل: إنها منسوخة بآية السيف.

قال السيوطي - رحمه الله -: إن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ليس بمنسوخ بآية السيف؛ لأنه خبر لا نسخ فيه (٣٩١). والراجح قول جمهور المفسرين بعدم نسخ قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ بآية السيف النحاس، وابن عطية، وابن جزي، وضعف القول بنسخها ابن الجوزي، وأبو حيان، وذلك أن الخطاب في الآية لبني إسرائيل فلا يكون فيه نسخ (٣٩٣)، كما أنه جرى مجرى الخبر (٣٩٤).

(٣٩١) سورة البقرة: الآية ٨٣.

(٣٩٢) ينظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: (٥٩ / ٢)، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي: (٨٧ / ١).

(٣٩٣) ينظر: النسخ والمنسوخ للنحاس: (١٠٣)، المحرر الوجيز لابن عطية: (١٧٣ / ١)، زاد المسير لابن الجوزي: (١ / ١١٠)، التسهيل لابن جزي الكلبي: (١١ / ١)، البحر المحيط لأبي حيان: (٤٥٤ / ١).

(٣٩٤) ينظر جامع البيان لابن جرير: (٣٠٩ / ١)، الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: (٥٩ / ٢).

المسألة الثامنة

موقف كل منهما من مسائل علم الكلام.

موقف ابن الجوزي-رحمه الله- من علم الكلام:

لا شك أن ابن الجوزي ذم علم الكلام، وقد رد على أهل الكلام، وشن عليهم الغارة ومن أقواله: (وقد تنوعت أحوال المتكلمين، وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك، وبيعضهم إلى الإلحاد، ولم تسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزاً، ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلاً، ثم يرد الصحيح عليلاً، فأمسكوا عنه ونهوا عن الخوض فيه) (٣٩٥). واعتبر ابن الجوزي أن أساس البدع دخلت على الأمة من طريقين:

(١) الفلسفة: التي عكف عليها خلق من العلماء لم يقنعوا بما قنع به رسول الله بالنبي صلي الله عليه وسلم حتى خاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب رديه أفسدوا بها العقائد.

(٢) الرهبة: حيث أخذ خلق من المتزهدين عن الرهبان طريق التقشف (٣٩٦) ويعني بهم الصوفية... وقال أبو محمد ابن قتيبة الدينوري في كتاب تأويل مختلف الحديث "لقد تدبرت مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتنون الناس بما يأتون، يتهمون غيرهم في النقل (أي استدلالهم بالنصوص) ولا يتهمون آراءهم في التأويل (٣٩٧)... وقال: "الكلام ليس من شأننا ولا أرى أكثر من هلك إلا به" (٣٩٨). وقد يستنبط مما ذكر أن ابن الجوزي كانت له ثقافة أصولية جدلية، ومما يقوى هذا الرأي وجود مصنفات لابن الجوزي في الأصول والجدل وهي: "المعتمد في الأصول" و"ولهجة العجل في

(٣٩٥) ينظر: تلبس إبليس (ص: ٩٥).

(٣٩٦) ينظر: صيد الخاطر (٢٦٦).

(٣٩٧) ينظر: تأويل مختلف الحديث (١٢).

(٣٩٨) ينظر: الاختلاف في اللفظ (ص: ٢٢٥).

الجدل" و"معتصر المختصر في مسائل النظر". وعند مراجعة بعض آراء ابن الجوزي في باب المعتقد والسلوك يتضح تأثره بالثقافة الأصولية والجدلية، وقد يؤخذ على ابن الجوزي مخالفته للحنابلة في بعض المسائل العقدية وميله للجدل ومدحه له أحياناً (٣٩٩).

موقف ابن عطية-رحمه الله- من علم الكلام:

كان ابن عطية رحمه الله يُكثر في تفسيره من ذكر وجوه الاحتمالات التي يُمكن حمل الآية عليها، ناقلاً ذلك عن المفسرين وغيرهم؛ فيقوم بتفسير الآية بعبارةٍ عذبةٍ سهلة، مناقشاً ما ينقله من آراء، وكان كثير الاستشهاد بالشعر العربي؛ فعني بالشواهد الأدبية للعبارة كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عند ما يُوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية، كما أنه يتعرّض كثيراً للقراءات وتوجيهها في آيات الذكر الحكيم. قال أبو حيان في مقدمة تفسيره في صدد المقارنة بين ابن عطية والزمخشري: "وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص، وكتاب الزمخشري أخص، وأغوص" (٤٠٠). وتأثر ابن عطية بعلم الكلام في تفسيره، ومن تكلم على تأثر ابن عطية بعلم الكلام ابن تيمية حيث قال: "وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل. فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري -وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدرًا- ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحاكيه بحال، ويذكر ما

(٣٩٩) عقد ابن الجوزي في الخاطرة رقم (١٢٣) مقالة مهمة عن خطر الجدل في علم الكلام على العامة وذكر فيه فوائد نفيسة تدل على براعته في أصول هذا العلم

(٤٠٠) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي الحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كان أقرب إلى السنّة من المعتزلة" (٤٠١).

المسألة التاسعة

المقارنة بين المفسرين في الصناعة الحديثية.

أولاً/ منهج ابن الجوزي في الصناعة الحديثية في تفسيره:

بالنظر والاستقراء لتفسير ابن الجوزي وجدنا طريقته تتمثل في:

١. يورد تفسير السورة فصولاً فصلاً في فضلها، وفصلاً في نزولها ثم فصلاً في تفسير السورة.

٢. يورد مشهور القراءات ثم يذكر التوجيه الذي توجه إليه والمعنى الذي يقصد من ذلك التوجيه.

٣. فسر القرآن بالقرآن أو بالسنة أو بأقوال الصحابة والتابعين.

٤. يورد سبب النزول إذا كان للآية أو للسورة.

٥. توضيح اللغويات والإكثار من تفرغ الألفاظ والأقوال (٤٠٢).

وقد غلبت الصنعة الحديثية على ابن الجوزي في تفسيره، فيورد الأحاديث والآثار مستشهداً على

كلامه، وقد اعتمد ابن الجوزي رحمه الله في تفسيره القرآن الكريم كمصدر أول في تفسيره وبيان معاني

الآيات، فكان عندما يبدأ في تفسير الآية يشير إلى آية أخرى تفسرها من القرآن الكريم، وهذا أعلى

مقامات التفسير. فإن لم يجد في القرآن اعتمد في تفسير الآيات على ما أثر على رسول الله ﷺ كمصدر

ثاني، ثم اعتمد على تفسير الصحابة رضوان الله عليهم من أمثال علي بن أبي طالب وعبد الله ابن مسعود

(٤٠١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (ط مجمع الملك فهد)، (٦/ ٢٢٨٤)، ومقدمة ابن تيمية في أصول التفسير (ص: ٢٣)، ومجموع

الفتاوى، (١٣/ ٣٦١).

(٤٠٢) نظر الامام ابن الجوزي وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، مرجع سابق، ص ٤٨/٩٤١. وانظر زاد المسير المرجع سابق، ص ٨-٩

وأبي بن كعب وعبد الله ابن عباس، ثم ما روي عن التابعين من أمثال ابن جبير وعكرمة وغيرهم... (٤٠٣).

ومن نماذج تفسيره وتأثره بالصنعة الحديثة (٤٠٤):

أ. ذكر سبب النزول بالنص: في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾.

و"هذه الآية من أولها إلى قوله: ﴿وَالْحَجِّ﴾ نزلت على سبب وهو أن رجلين من الصحابة قالوا: يا رسول

الله ما بال الهلال يبدو دقيفا ثم يزيد ويمتلئ حتى يستدير ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود

كما كان؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾.

ب. ذكر الروايات بأسانيدھا: في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ﴾. "وفي سبب نزولها

ثلاثة أقوال: أحدها: أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي صلى الله عليه وسلم

إلى قبلته، فلما صرف إلى الكعبة يمسوا منه، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس. والثاني: أنهم دعوه إلى

دينهم فنزلت، قاله مقاتل. والثالث: أنهم كانوا يسألونه الهدنة ويطمعونه في أنهم إن هادتهم وافقوه

فنزلت، ذكره الزجاج (٤٠٥): فقد كان ابن الجوزي رحمه الله يفسر الآيات بالقرآن فإن لم يرد تفسيرها في

القرآن أورد أحاديث رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ومفسراً كلام الله عز وجل.

ومن بين الآيات التي ورد فيها تفسير القرآن بالسنة النبوية ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ

عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾ إن قال قائل: هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجيب أدعية الداعين، وترى

كثيراً من الداعين لا يستجاب لهم. فالجواب: أن أبا سعيد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطعة رحم ولا إثم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال:

(٤٠٣) انظر ابن الجوزي ومنهجه في التفسير من خلال المجلد التاسع من زاد المسير المشتمل على تفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم،

قاسم بن عبد الملح الصغير ص ٢١-٢٢-٢.

(٤٠٤) ينظر: زاد المسير مرجع سابق ص ١١٠.

(٤٠٥) ينظر: زاد المسير مرجع سابق (ص: ٩٥).

إما أن يعجل دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما يدفع عنه السوء مثلها». وجواب آخر: هو أن الدعاء تفتقر إجابته إلى شروط أصلها الطاعة الله، ومنها أكل الحلال، فإن أكل الحرام يمنع إجابة الدعاء، ومنها: حضور القلب، ففي بعض الحديث: «لا يقبل الله دعاء من قلب غافل لاه». وجواب آخر: وهو أن الداعي قد يعتقد المصلحة في إجابته إلى ما سأل، وقد لا تكون المصلحة في ذلك...^(٤٠٦). وقد

استشهد ابن الجوزي بالأحاديث الصحيحة والضعيفة وفسر بها القرآن وهذه أمثلة على ذلك:

- تفسيره واستشهاده بالأحاديث الصحيحة: (ص ٦٤، ١٥٣، ١٥٥، ١٧٧).

- تفسيره واستشهاده بالأحاديث الضعيفة: (ص ٧١، ١٠٤، ١٩٢، ٢٠٩).

ثانياً/ منهج ابن عطية في الصناعة الحديثية في تفسيره:

تأثر ابن عطية بالتفسير بالمأثور والصناعة الحديثية، ومن أهم كتب التفسير بالمأثور:

١. جامع البيان في تفسير القرآن للطبري.
٢. بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي انظر الكلام مفصلاً في تحقيقنا لدار الكتب العلمية.
٣. معالم التنزيل للبعوي.
٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية وهو الذي نحن بصدده.
٥. تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير.
٦. الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي^(٤٠٧).

(٤٠٦) زاد المسير، مرجع سابق (ص: ١٠٨/١٠٧).

(٤٠٧) ينظر: مقدمة المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١٨/١).

وقد تأثر ابن عطية بالتفسير بالمأثور والتي يغلب عليها الصنعة الحديثية، ولقد سلك ابن عطية في

تأليف كتابه «المحرر الوجيز» مسالك المفسرين فجاء كتابه جامعا بين المأثور والمعقول فمن أهم الأسس التي قام عليها منهجه في تفسيره:

١- الجانب الأثري يذكر ابن عطية دائما ما روي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما روي عن الصحابة والتابعين في تفسير القرآن ولكن دون ذكر أسانيد المرويات وكثيرا لا يذكر تخريج الحديث ويكتفي أحيانا بذكر الصحابي الراوي للحديث وكان ينقل عن ابن جرير الطبري كثيرا ويناقش رأيه ويرد عليه أحيانا.

٢- جانب الرأي عند ابن عطية كان ابن عطية رحمه الله يكثر في تفسيره من ذكر وجوه الاحتمالات التي يمكن حمل الآية عليها ناقلا ذلك عن المفسرين وغيرهم فيقوم بتفسير الآية بعبارة عذبة سهلة- مناقشا ما ينقله من آراء وكان كثير الاستشهاد بالشعر العربي، فعني بالشواهد الأدبية للعبارة كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عند ما يوجه بعض المعاني، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية كما أنه يتعرض كثيرا للقراءات وتوجيهها في آيات الذكر الحكيم. قال أبو حيان في مقدمة تفسيره في صدد المقارنة بين ابن عطية والزمخشري: «وكتاب ابن عطية أنقل، وأجمع، وأخلص، وكتاب الزمخشري أخص، وأغوص»^(٤٠٨). هذا ولم يسلم تفسير ابن عطية رغم الحيطنة من بعض الإسرائيليات، فقد اشترط المصنف على نفسه أن لا يذكر منها إلا ما لا تنفك الآية إلا به^(٤٠٩)، غير أنه وقع في المحذور الذي حذر منه في بعض المواضع وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله وهو مع هذا يبقى الرائد الذي خلص التفسير من كثير من الدخيل، يقول الأستاذ عبد الوهاب فائد: إن ابن عطية في تفسيره على وجه العموم قد اتخذ لنفسه منهجا علميا دقيقا

(٤٠٨) ينظر: مقدمة المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١٩/١).

(٤٠٩) انظر: المحرر الوجيز: (١٠/١).

بالنسبة للروايات الإسرائيلية، ومن هنا يرتقي ابن عطية إلى مصاف المفسرين الذين احتاطوا في الأخذ بالإسرائيليات، وقاموا بمحاولات جدية ومشكورة لتصفية التفسير من هذا الهشيم الإسرائيلي المركوم، الذي يشوه كتاب الله تعالى^(٤١٠). ومن الأمثلة التي تدل على تأثر ابن عطية بالتفسير بالمأثور وأثر الصنعة الحديثية عليه، مقدمته في التفسير، ونجدها كالاتي:

قسم ابن عطية مقدمته إلى تسعة أبواب، إضافة إلى التقديم الذي بين فيه أهمية علم التفسير، والأسباب الداعية للتصنيف، والمنهج المتبع في التأليف، وهذه الأبواب هي:

١. ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ونبيه العلماء رضي الله عنهم في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به.
 ٢. في فضل تفسير القرآن، والكلام على لغته. والنظر في إعرابه ودقائق معانيه.
 ٣. ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين.
 ٤. معنى قول النبي: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فافقهوا ما تيسر منه».
 ٥. ذكر جمع القرآن، وشكله، ونقطه، وتحزيبه، وتعشيره.
 ٦. في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بما تعلق.
 ٧. نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن.
 ٨. في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى.
 ٩. في تفسير أسماء القرآن، وذكر السورة والآية^(٤١١).
- وهذه المصادر الحديثية التي أثرت في ابن عطية ومنهجه في التفسير:

(٤١٠) انظر: منهج ابن عطية في تفسير القرآن، د / عبد الوهاب فائد: (١٨٥).

(٤١١) يراجع مقدمة تفسير ابن عطية=المحرر الوجيز

١. صحيح البخاري المسمى بالجامع الصحيح. وهو لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ وقد خرج الإمام ابن عطية عنه كثيراً.
٢. المسند الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وهو من المصادر الهامة لابن عطية قد خرج عنه كثيراً.
٣. سنن أبي داود. وهو سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر المتوفى سنة ٢٧٥ هـ (٤١٢).

المسألة العاشرة

المقارنة بين المفسرين في الصناعة الأصولية

أولاً: الصناعة الأصولية عند الإمام ابن الجوزي.

عند تعرض ابن الجوزي - رحمه الله - للأحكام الفقهية والأصولية أورد الأقوال المختلفة للصحابة والتابعين وأئمة المذاهب دون أن يرجح بينها إلا في مواضع قليلة. وسنذكر فيما يلي بعض الآيات الأحكام التي وردت فيها أحكام فقهية وتعرض لها في تفسيره: حكم الأكل والشرب لمن شك في طلوع الفجر: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ حيث أورد فصلاً فيها مبيناً الأحكام التي اشتملت عليها قائلاً: "إذا شك في الفجر، فهل يدع السحور أم لا؟ فظاهر كلام أحمد يدل على أنه لا يدع السحور، بل يأكل حتى يستيقن طلوع الفجر. وقال مالك: أكره أن يأكل إذا شك في طلوع الفجر، فإن أكل فعليه القضاء. وقال الشافعي: لا شيء عليه" (٤١٣). وكان قلماً يرجح بين الأقوال، حيث أنه لم ينصر مذهبه في الترجيحات. وكما جاء في حكم الوصية؛ عند تفسيره رحمه الله لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ...﴾. "هل كانت الوصية ندباً أو واجبة؟ فيه قولان: أحدهما: أنها كانت ندباً. والثاني: أنها كانت فرضاً وهو أصح لقوله تعالى: كتب

(٤١٢) ينظر: مقدمة تفسير ابن عطية، (٢١/١).

(٤١٣) ينظر: زاد المسير، مرجع سابق (ص: ١٠٩).

ومعناه فرض. قال ابن عمر: نسخت الآية بآية الميراث^(٤١٤). وقال ابن عباس: نسختها ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ والعلماء متفقون على نسخ الوصية للوالدين والأقربين الذين يرثون، وهم مختلفون في الأقربين الذين لا يرثون: هل تجب الوصية لهم؟ على قولين: أصحهما أنها لا تجب".

ثانياً: الصناعة الأصولية عند الإمام ابن عطية.

لم يغفل الأحكام القرآنية المستفادة من الآيات، ولا المسائل الفقهية، دون الإكثار منها متمشياً مع الدليل، لكنه قليل التعرض للمسائل الفقهية والأحكام الأصولية، ومما ذكرناه في بداية دراستنا أن مذهب ابن عطية مالكي وينصر المذهب المالكي كعلماء المغاربة الذين تأثروا بمذهب الإمام مالك^(٤١٥). ومن التماذج التي تدل على الصنعة الأصولية والفقهية عند ابن عطية: قال ابن عطية عند ختامه لتفسير سورة الفاتحة: (وقال القاضي أبو محمد فمقتضى هذه الآثار أن كل داع ينبغي له في آخر دعائه أن يقول آمين، وكذلك كل قارئ للحمد في غير صلاة لكن ليس بجهر الترتيل، وأما في الصلاة فقال بعض العلماء يقولها كل مصل من إمام وفد ومأموم قرأها أو سمعها. وقال مالك في المدونة: لا يقول الإمام آمين ولكن يقولها من خلفه ويخفون ويقولها الفذ. وقد روي عن مالك رضي الله عنه أن الإمام يقولها أسر أم جهر. وروي عنه الإمام لا يؤمن في الجهر. وقال ابن حبيب: يؤمن. وقال ابن بكير: هو مخير. قال القاضي أبو محمد عبد الحق رضي الله عنه: فهذا الخلاف إنما هو في الإمام ولم يختلف في الفذ ولا في المأموم إلا ابن نافع. قال في كتاب ابن حارث لا يقولها المأموم إلا إن سمع الإمام يقول: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة وإذا كان بعيد لا يسمعه فلا يقل^(٤١٦). والتعليق على هذا النقل:

(٤١٤) ينظر: زاد المسير، مرجع سابق (ص: ١٠٤).

(٤١٥) ينظر: منهج ابن عطية والزنجشري في تفسير آيات الأحكام من خلال سورة النساء لمجلة جامعة القرويين - المغرب.

(٤١٦) ينظر: المحرر الوجيز، (١٧/١).

نقل ابن عطية أقوال الفقهاء وخاصةً فقهائ الأندلس المعاربة، ويدل على تأثره بالمذهب المالكي، وغالبًا لا يرجع ابن عطية بين الأقوال إلا قليلًا. فيختصر ابن عطية في ذكر الأقوال الفقهية والأصولية ومثاله: قوله: (وقد تقدم القول في الصلاة و"الزكاة" في هذه الآية هي المفروضة بقريظة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها و " الزكاة " مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذي يثيب الله به المرء، وقيل: " الزكاة " مأخوذة من التطهير كما يقال زكا فلان أي طهر من دنس الجرحه أو الاغفال فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين ألا ترى أن النبي (ص) سمى في الموطأ ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس. وقوله تعالى: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الرَّكْعَيْنِ﴾ قال قوم جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة كلها. وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع. وقالت فرقة: إنما قال: ﴿مَعَ﴾ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهود الجماعة فأمرهم بقوله: ﴿مَعَ﴾ بشهود الجماعة (٤١٧).

المسألة الحادية عشر

المقارنة بين المفسرين في قواعد الترجيح

أولاً: قواعد الترجيح المتعلقة بالقرآن.

١. الترجيح بدلالة آية:

إن أفضل تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن قائل الكلام أدري بمعانيه ومقاصده، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في ذلك أن، فما أجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر (٤١٨). وتبعه في ذلك تلميذه ابن القيم بقوله: " إن تفسير القرآن بعضه ببعض هو ... أولى

(٤١٧) ينظر: المحرر الوجيز، (١/ ١١٨).

(٤١٨) ينظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، شرح: فضيلة الشيخ محمد بن، مدار ... الوطن - الرياض، ١٤٢٦ هـ، ص ١٣٠.

التفاسير ما وجد إليه السبيل؛ ولهذا كان يعتمد الصحابة والتابعون، والأئمة بعدهم" (٤١٩). يقول صاحب قواعد الترجيح في قاعدة مهمة فيقول: "كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله" (٤٢٠). منهج ابن الجوزي فإنه يذكر الروايات التي تتحدث عن الموضوع المطروح للبحث، مع التصريح بذكر الراوي أو القائل، وإن كان في المسألة خلاف أشار إلى ذلك وقد يرجح حينئذ بينها، وقد يكتفي بذكر الروايات دون الترجيح (٤٢١). وقال يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الكلام إذا احتمل معنيين، وجب حمله على أظهرها، ومن تكلف غير ذلك، فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن منزّه عن ذلك، والعدول عمّا يدلُّ عليه ظاهر الكلام إلى ما لا يدل عليه بلا دليل، لا يجوز ألّبتة" (٤٢٢).

الترجيح بدلالة آية أو آيات قرآنية أخرى: إذا تعددت الأقوال فيما، فالقول الذي تؤيده آيات قرآنية أخرى مقدمٌ على غيره؛ لأن تأييد القرآن له يدل على صحته واستقامته (٤٢٣). وابن الجوزي يشير في كتابه إلى أن التفسير المنقول إما أن يكون مجمعاً عليه أو لا فإن كان مجمعاً عليه فلا حاجة إلى الترجيح (٤٢٤) ورغم ما ذكره من حديث من وجود الحاجة للترجيح بين الأقوال إلا أن الغالب في تفسيره حكاية الخلاف بذكر الأقوال متواطئة في معناها ولا تحتاج لأن يرجح بينها. ومن الأمثلة التي تؤكد هذه الطريقة ما أورده ابن الجوزي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] وجاء عنه في تفسيرها ما يلي: "الإشارة بذلك إلى ما تقدم من الوعيد بالعذاب فتقديره ذلك العذاب بأن الله نزل الكتاب بالحق فكفروا به واختلفوا فيه وفي الكتاب

(٤١٩) ينظر: مختصر الصواعق المرسله على، لابن قيم الجوزية، اختصار: محمد بن الموصلي، خرّج نصوصه وعلق عليه وقدم له: د. الحسن بن عبد الرحمن، مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ، (٣/ ١٠٢٠).

(٤٢٠) ينظر: (قواعد التفسير عند المفسرين) (٣٤٩/٢).

(٤٢١) انظر: زاد المسير: (٥/ ١).

(٤٢٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٢٧).

(٤٢٣) ينظر: منهج ابن الفرس في ترجيحاته في التفسير.

(٤٢٤) ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، (ج ٨، ص ٢١٦).

قولان أحدهما أنه التوراة والثاني القرآن وفي الحق قولان أحدهما العدل والثاني أنه ضد الباطل قاله مقاتل، وفي قوله وإن الذين اختلفوا في الكتاب قولان أحدهما أنه التوراة ثم في اختلافهم فيها ثلاثة أقوال أحدهما أن اليهود والنصارى اختلفوا فيها، فادّعى النصارى فيها صفة عيسى وأنكر اليهود ذلك والثاني أنهم خالفوا ما في التوراة من صفة محمد - صلى الله عليه وسلم - والثالث أنهم خالفوا سلفهم من التمسك بها، والقول الثاني أنه القرآن فمنهم من قال: شعر ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر".

ومن هنا يتضح لنا أن ابن الجوزي قد سلك في تفسيره هذه الطريقة حيث إنه أورد الأقوال ولم يرجح بينها رغم أن الاختلاف الوارد في المثال السابق يعتبر من اختلاف التضاد وهذا النوع من الاختلاف دواعي الترجيح فيه أكبر من غيره.

وأما ترجيحه لدلالة الآية أو الآيات فمثاله: إن ابن الجوزي ينص على اختياره كثيراً، بل وأحياناً يظهر إعجابه بما ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٥). وذكر ابن الجوزي قولين في هذه الآية، قال: "أحدهما: أن معناه كحب الذين آمنوا لله هذا قول ابن عباس وعكرمة وأبي العالية، وابن زيد ومقاتل والفراء^(٤٢٥). والثاني: يحبونهم كمحبتهم لله، أي: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة، هذا اختيار الزجاج قال: "والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾"^(٤٢٦). وقد دلت الأدلة على اعتبار هذا الوجه في الترجيح، وأن القول الذي تؤيده آيات من على غيره. ومن تلك الأدلة: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - اعتبر هذا الوجه في تفسيره لبعض الآيات، ورجح ابن الجوزي قاعدة الترجيح باستدلاله بالآية والاستشهاد بما على اختياره وترجيحه.

(٤٢٥) ينظر: معاني الفراء ١/٩٧، البحر المحيط (١/٦٤٤).

(٤٢٦) ينظر: زاد المسير ١/١٧٠ مع معاني القرآن وإعرابه (١/٢٣٧).

وأما ابن عطية فكان يسلك مسالك شتى في ترجيحه ومنها: حكاية الاختلاف مع بيان الراجح دون ذكر مستند الترجيح: ويرى ابن عطية رحمه الله أن لفظ القرآن يحتمل وجوهاً كثيرة من المعاني وهو يشير إلى ذلك في مقدمة تفسيره ويروي لنا حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة»^(٤٢٧) ليؤكد به ما ذهب إليه. وابن عطية يكثر في تفسيره من ذكر الاحتمالات التي يمكن حمل الآية عليها كما كان يكثر من ذكر أقوال المفسرين ثم يتركها دون تعقيب عليها إذا كانت هذه الأقوال محتملة عنده في معنى الآية وأحياناً يرجح بينها إذا لم تكن جميع الأقوال محتملة أو يوفق بين هذه الآراء ومن أمثلة ذلك ما أورده من تفسيره لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٣٦٩].

يقول في تفسيرها: "واختلف الناس في الحكمة في هذا الموضع فقال السدي: الحكمة النبوة، وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهة، وقال قتادة: الحكمة الفقه في الدين، وقال مجاهد: الحكمة الإصابة من القول والفعل، وقال ابن زيد وأبوه زيد بن أسلم: الحكمة العقل في الدين، وقال مالك: الحكمة المعرفة بالدين والفقه فيه والإتباع له. وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي قريب بعضها من بعض وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس"^(٤٢٨). ومن هنا يظهر لنا أن ابن عطية قد ذكر وعرض الاختلاف الوارد بين السلف ووفق بين هذه الأقوال توفيقاً طيباً رغم أنه لم يذكر المستند الذي اعتمد عليه في الترجيح والتوفيق.

وأما مثال ترجيحه بدلالة الآية أو الآيات:

(٤٢٧) ينظر: تفسير ابن عطية، (ج ١، ص ٥).

(٤٢٨) ينظر: تفسير ابن عطية، (ج ١، ص ٢٦٩).

- اعترض القاضي ابن عطية على الاستدلال بقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وأن المراد بها مشركو العرب، اعترض قائلاً: "وهذا تحكم لا يساعده اللفظ، ويتجه أن يُقال: تعالى الله عن ذلك اليسير المتهم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلام في جهة أبويننا آدم وحواء - عليهما السلام - وجاء الضمير في " يشركون " ضمير جمع؛ لأن إبليس مدبر معهما تسمية الولد عبد الحارث " (٤٢٩).
- وقد ينقل ابن عطية الترجيح عن أحد من المفسرين ويرجحه بدلالة ذكر الآيات على هذا الترجيح ومثاله: قوله: وقال عطاء بن أبي رباح "شعائر الله" جميع ما أمر به أو نهي عنه وهذا هو القول الراجح الذي تقدم (٤٣٠).

٢. الترجيح بناء على السياق.

من القواعد المقررة في الترجيح: وجوب حمل ألفاظ الكتاب على الأوجه الإعرابية:

القوية والمشهورة، دون الضعيفة والشاذة والغريبة، فمثلاً في قصة إبراهيم عليه السلام ليس في سياق الآيات ما يدل على أنه كان مناظراً، إلا بعد ما هداه الله، واستيقن الحق، فحينئذ توجه إلى قومه قائلاً لهم: ﴿... يا قوم إني بري ... مما تشركون ...﴾ الآيات، وحينئذ حاجه قومه، وهددوه، وخوفوه بأهنتهم، فأقام عليهم الحجّة. وهذا هو معنى قوله في سورة إبراهيم: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من ... قبل وكنا به علمين﴾ [الأنبياء: ٥١] (٤٣١). والمراد بدلالة السياق: دلالة سابق الكلام، ولاحقه على معناه، ويطلق على سابق الكلام سباق، وعلى لاحقه لحاق (٤٣٢). السياق يأتي في المرتبة الأولى من حيث الاعتبار في معنى الآية، ويكون القول الذي يتوافق مع سياق الآية هو القول الصحيح المعتمد، وهذا ما قرره جمهور

(٤٢٩) ينظر: المحرر الوجيز (٤٨٧/٢).

(٤٣٠) ينظر: المحرر الوجيز، (١٧٠/٢).

(٤٣١) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين: (٦٤٥ /٢).

(٤٣٢) انظر: قواعد الترجيح (١٢٥/١).

المفسرين، فقال الزركشي: "ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز" (٤٣٣). ووافق صاحب قواعد الترجيح حيث قال: "القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه" (٤٣٤). ولكن معرفة السياق مبنية على الاجتهاد وغلبة الظن، وعليه فيكون تحديد السياق أمراً ظنياً لا قطعياً، ولهذا تجد الاختلاف في تحديد السياق في الآية الواحدة (٤٣٥).

ثانياً: قواعد الترجيح المتعلقة بالقراءات:

١. إذا ثبتت القراءة فاليجوز ردها أو رد معناها فهي إجماع لا يجوز مخالفته. فمتى ثبتت القراءات فلا يجوز ردها أو ردها معناها، بل يجب قبولها وقبول معناها (٤٣٦). " فهذه القراءات التي يتغاير فيها المعنى كلها حق، وكل قراءة منها مع القراءة الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، وأتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى؛ ظناً أن ذلك تعارض" (٤٣٧).
٢. القراءة الموافقة لرسم المصحف أولى من المخالفة للرسم.

القاعدة الضابطة لهذه المسألة: إذا تنازع المفسرون في تفسير آية من كتاب الله، أو في إعرابها، وكان أحد الأقوال موافقاً لرسم المصحف ولا يقتضي مخالفة له، وآخر يقتضي مخالفة له، فأولى الأقوال بتفسير الآية ما وافق الرسم العثماني الذي أجمع عليه الصحابة (٤٣٨). واعتمد هذه القاعدة في الترجيح جماعة من أئمة التفسير، فرجحوا بها أقوالاً وضعفوا بها أخرى، فمن هؤلاء الأئمة: أبو جعفر النحاس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [سورة المطففين: ٣] بعد أن ذكر القولين في الضمير "هم" قال:

(٤٣٣) ينظر: "البرهان في علوم القرآن" (٣١٧/١).

(٤٣٤) ينظر: "قواعد الترجيح عند المفسرين" (٢٩٩/٢).

(٤٣٥) انظر: "أثر السياق في النظام النحوي" (ص ٩٣).

(٤٣٦) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحري (١/ ٨٩).

(٤٣٧) ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٣/ ٢١١).

(٤٣٨) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين /حسين الحري، ج ١، ص ١١٠.

"والصواب أن الهاء والميم في موضع نصب؛ لأنه في السواد بغير ألف" اهـ (٤٣٩). يعني في رسم المصحف بغير ألف بعد الواو. ومنهم أبو حيان فقد استعمل هذه القاعدة في الترجيح، فقد صحح بما بعض الأوجه التفسيرية، والإعرابية، وضعّف بما أقوالاً لأجل مخالفتها الرسم مثاله: قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ رِّجَالٌ﴾ [سورة طه، الآية: ٦٣] (٤٤٠). ومثاله على هذه القاعدة: - قراءة "بضنين" قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينَ﴾ [سورة التكوير، الآية: ٢٤]. واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿بِضَنِينَ﴾ وهذا الخلاف عائد إلى القراءات الواردة فيها، فمنهم من ذهب إلى أن المعنى أنه غير بخيل، ومنهم من ذهب إلى أن المعنى أنه غير متهم (٤٤١).

ثالثاً: قواعد الترجيح المتعلقة بالسنة النبوية والآثار:

١. تفسير النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على كل تفسير. فيقول شيخ الإسلام: "فإن أعياك تفسير القرآن بالقرآن فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن، وموضحة له" (٤٤٢). ومثاله تفسير معنى الظلم بالشرك ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾.
٢. إذا ثبت في السنة ما يؤيد أحد التفاسير فهو مرجح له عما سواه. فالصحابية ش أعلم الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بألفاظ القرآن ومعانيه، فقد سمعوا القرآن منه - صلى الله عليه وسلم -، وشاهدوا التنزيل، وعاشوا أحداثه، فكان الواجب على من تعذر عليه تفسير القرآن بالقرآن أو بالسنة النبوية أن يرجع إلى أقوال الصحابة - رضي الله عنهم - وإذا لم يجده عندهم رجع إلى أقوال التابعين - رحمهم الله - ومثاله: تفسير معنى ﴿أَفْضُتُمْ﴾ ﴿أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

(٤٣٩) ينظر: إعراب القرآن / النحاس، ج ٥، ص ١٧٤.

(٤٤٠) انظر البحر المحيط / أبو حيان، ج ٦، ص ٢٣٨.

(٤٤١) انظر جامع البيان/ الطبري، ج ٣٠، ص ١٠٢، وإعراب القرآن وعلل القراءات / الباقولي، ج ٢، ص ٤٠٩.

(٤٤٢) ينظر: مقدمة في أصول التفسير (ص ١٣٠).

٣. التفسير المستند إلى حديث ضعيف تفسير مردود. فمن القواعد المقررة أن التفسير المستند إلى حديث ضعيف مردود، ومثاله: تفسير الميراث في سورة مريم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾. واختلف المفسرون في المراد بالميراث المذكور في الآية على أقوال ثلاثة: القول الأول: أن المعنى: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما (٤٤٣)، وبه قال أبو صالح (٤٤٤)، واختاره ابن جرير (٤٤٥)، وابن عاشور (٤٤٦)، وأجازته النحاس (٤٤٧)، واستدل لهذا القول بحديث الحسن، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول» (٤٤٨). ولكن هذا الحديث مرسل ضعيف (٤٤٩). ورد كثير من المفسرين هذا الحديث الضعيف لوجه عدة وهي: أحدها: أنه صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقة» (٤٥٠)، وهذا عام في جميع الأنبياء على الصحيح (٤٥١). والثاني: أنه لا يليق بنبي أن يتأسف على مصير ماله بعد موته، إذا وصل إلى وارثه المستحق له شرعاً (٤٥٢). والثالث: أنه - عليه السلام - لم يكن ذا مال، فقد قال - صلى الله عليه وسلم -: «كان زكريا نجاراً» (٤٥٣)(٤٥٤). والرابع: أن النبي لا يطلب ولدًا

(٤٤٣) ذكره في الدر المنثور (٤٦٧/٤) وعزه للفريابي.

(٤٤٤) أخرجه ابن جرير (٣٠٨/٨).

(٤٤٥) تفسيره (٣٠٨/٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (١١٨/٣).

(٤٤٦) تفسيره (٦٦/١٦).

(٤٤٧) إعراب القرآن (٧/٣).

(٤٤٨) استدلل به ابن جرير (٣٠٨/٨)، وابن عاشور (٦٦/١٦)، والحديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣١٥/٢)، وابن جرير (٣٠٨/٨) من طريق آخر عن قتادة، وعزه في الدر (٤٦٧/٤).

(٤٤٩) أعلّه بالإرسال ابن كثير (١١٨/٣)، وضعفه الشنقيطي (٢٠٩/٤).

(٤٥٠) ذكره الزجاج (٣٢٠/٣)، وابن عطية (١٣/١١)، وابن الجوزي في تفسيره (١٤٦/٥) وغيرهم، والحديث أخرجه البخاري (٨/١٢) ح (٦٧٢٧)، كتاب الفرائض، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لا نورث»، ومسلم (٣/١٣٧٩ ح ١٧٥٨)، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «لا نورث» ...

(٤٥١) أضواء البيان (٢٠٧/٤).

(٤٥٢) ذكره الزجاج (٣٢٠/٣)، وابن الجوزي في تفسيره (١٤٦/٥).

(٤٥٣) أخرجه مسلم (٤/١٨٤٧ ح ٢٣٧٩)، كتاب الفضائل، باب من فضائل زكريا - عليه السلام -.

(٤٥٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٣/١٧٦)، وابن الجوزي (١٤٦/٥).

ليُورث ماله؛ فإنه لو كان يُورث لم يكن بَدُّ من أن ينتقل المال إلى غيره، سواء كان ابناً أو غيره (٤٥٥).
 والخامس: أنه لو كان المراد المال لما خصَّه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبيرُ فائدة،
 إذ من المعلوم في جميع الشرائع أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثه خاصة لما أُخبر بها (٤٥٦). والسادس: أن
 آل يعقوب انقضوا عن زمان؛ فلا يورث عنهم إلا العلم والنبوة والدين (٤٥٧)، أما القول الثاني: أن المعنى:
 يرثي العلم، ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله - تعالى - إلى وراثه العلم دون وراثه الملك؛ وهذا
 مروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً (٤٥٨). وقال ابن عطية (٤٥٩): "والأظهر الأليقُ بذكرها -
 عليه السلام - أن يريد وراثه العلم والدين"، واختاره الزمخشري (٤٦٠).

رابعاً: قواعد الترجيح المتعلقة بأسباب النزول:

١. سبب النزول مرجح لما وافق معناه من أوجه التفسير. فإذا تنازعت القواعد المثال الواحد؛ بحيث صار
 لكل قول قاعدة ترجحه فإن المعتبر به غلبة ظن المجتهد كما قال الزركشي: «واعلم أن الترجيح كثيرةٌ،
 ومناطها: ما كان إفادته للظن أكثر فهو الأرجح، وقد تتعارض هذه المرجحات كما في كثرة الرواة وقوة
 العدالة وغيره، فيعتمد المجتهد ما غلب على ظنه» (٤٦١). وقال الشنقيطي: «المرجحات يرجع بعضها
 على بعض؛ وضابط ذلك عند الأصوليين هو قوة الظن» (٤٦٢). ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا
 مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٢٢] ففيها قولان:

(٤٥٥) ينظر: منهاج السنة النبوية (٢٢٤/٤).

(٤٥٦) ذكره ابن كثير في تفسيره (١١٧/٣).

(٤٥٧) ذكره الشنقيطي في تفسيره (٢٠٦/٤).

(٤٥٨) ينظر: تفسيره (١٣/١١)، وانظر: ابن الجوزي (١٤٦/٥).

(٤٥٩) ينظر: زاد المسير (١٤٦/٥).

(٤٦٠) ينظر: الكشاف (٤٠٥/٢).

(٤٦١) ينظر: البحر المحيط، للزركشي (١٥٩/٦).

(٤٦٢) ينظر: أضواء البيان (٣٧١/٥).

- **الأول:** ولا تنكحوا من نكح آبائكم من النساء؛ فمنكوحه الأب حرام على ابنه و(ما) في الآية موصولة، ويدل عليه سبب نزول الآية؛ حيث إن قيس بن صيفي بن الأسلت خطب امرأة أبيه فأنزل الله الآية.

- **الثاني:** ولا تنكحوا نكاح آباءكم الفاسد الذي يتعاطونه في الجاهلية، و(ما) مصدرية؛ قالوا: لأن (ما) لا تكون إلا لغير العاقل غالباً، والقاعدة: وجوب حمل كلام الله على المعروف المشهور من كلام العرب.

ولا شك أن القول الأول هو الصواب لاعتماده على سبب النزول، هذا فضلاً عن كون (ما) وردت للعاقل في غير ما آية من غير نكارة ولا شذوذ كقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢] وقوله: ﴿يَا نَدْرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ [آل عمران: ٣٥]. ومن قواعد الترجيح المعتبرة عند المفسرين: أن سبب النزول الصريح إذا صح، فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير^(٤٦٣). والقاعدة الضابطة: أن المرويات إذا تعددت في سبب النزول نُظِرَ إلى الثبوت فاقتصر على الصحيح، فإن كانت المرويات ثابتة نُظِرَ في العبارة فاقتصر على الصريح، فإن كانت كلها صريحة نُظِرَ في زمان النزول، فإن تقارب حمل على الجميع، وإن تباعد حكم بتكرار النزول أو الترجيح^(٤٦٤).

٢. العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: أي: إذا وردت الآية على سبب خاص فإنها لا تُقصر عليه، بل يُنظر إلى عموم لفظها؛ ومثالها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وقيل: نزلت في عقبه بن أبي معيط، وقيل: نزلت في جماعة من قريش. قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك عندي، وبالصواب أن يقال إن الله تعالى ذكَّره أخبر أن مبغض رسول الله صلى

(٤٦٣) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين: (١/ ٢٤١).

(٤٦٤) انظر: "إلتقان"؛ للسيوطي: (١/ ٩١ - ٩٦)، "مناهل العرفان"؛ للزرقاني: (١/ ١١٥ - ١٢١)، "قواعد التفسير"؛ للسبب: (١/

٦٩ - ٧٥)، "فصول في أصول التفسير"؛ للطيار: (٤٤ - ٤٥).

الله عليه وسلم هو الأقل الأذل المنقطع عقبه؛ فذلك صفة كل من أبغضه من الناس، وإن كانت الآية

نزلت في شخص بعينه». وهذه القاعدة لها تعلق بالمسائل الأصولية، ومن أمثلتها في التفاسير:

١ - الآيات النازلة في غزوة بدر، والآيات النازلة في غزوة أحد من سورة آل عمران.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَرِلُوا الْبَسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾.

٣ - قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

٤ - قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.

ففي آية المحيض سأل المسلمون رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن معاملة الحائض.

وفي الثانية سأله عن كيفية توزيع الأنفال، وفي الثالثة سأله عن معاملة يتامى النساء المسلمات في

النكاح. فالبائولون جماعة من المسلمين وليس واحداً، فمن ثم كان السؤال عاماً.

٣. إذا ثبت تاريخ نزول الآية فهو مرجح لما وافقه من أوجه تفسير. ومن المعلوم أن القرآن نزل مفرقاً، فمنه ما

نزل قبل الهجرة، ومنه ما نزل بعد الهجرة، ومنه ما تقدم نزوله، ومنه ما تأخر، وفي بعض الأحيان يكون

تاريخ نزول الآية إذا كان معلوماً دليلاً لرجحان أحد الأقوال، أو ردّها بعضها. وقد اعتمد العلماء هذا الوجه

في ترجيحاتهم^(٤٦٥). ومنهم شيخ الإسلام؛ فقد استخدم هذا الوجه في ترجيحاته في مواضع عديدة، ومن

أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٣]. فقد

رجح كثير من المفسرين أن المعنى: لا أسألكم يا معشر العرب، ويا معشر قريش عليه أجراً، لكن أسألكم

أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم، وضعف قول من قال إنها نزلت في علي وفاطمة وابنيهما - رضي الله

عنهم - وقال: "إن هذه الآية مكية، ولم يكن علي بعد تزوج بفاطمة، ولا ولد له أولاد"^(٤٦٦). ومن القواعد

(٤٦٥) انظر: قواعد الترجيح (١/٢٥٨).

(٤٦٦) ينظر: منهاج السنة (٤/٢٥).

الضابطة لهذه المسألة: "إذا ثبت تاريخ نزول الآية أو السورة فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير" (٤٦٧)، وذلك أنه عنى بقوله: "أن سورة البقرة من أول ما نزل وسورة المائدة من آخر ما نزل" تأخر نزول المائدة على نزول البقرة في الجملة، وإن كان غير معلوم تاريخ النزول باليوم أو السنة، ولكن التأخر ثابت وهذا هو المراد، فكان ترجيحه على ذلك والله أعلم.

خامسا: قواعد الترجيح المتعلقة باللغة.

الأول/ الترجيح بظاهر من اللغة دون الشاذ والضعيف والمنكر. وضوابط وشروط الترجيح بظاهر من اللغة دون الشاذ والضعيف والمنكر (٤٦٨) هي:

١. أن تكون اللفظة المفهومة صحيحة في اللغة، فلا يجوز تفسير القرآن بما لا يعرف في لغة العرب.
٢. أن يفهم القرآن على الأغلب المعروف من لغة العرب دون الشاذ أو القليل.
٣. أن يراعى المفسر عند تفسيره السياق، فلا.
٤. أن يعرف ملابسات النزول إذا احتاجها عند تفسير لفظة ما؛ لكي يعرف المراد بها في الآية.
٥. أن يقدم على المعنى اللغوي إذا تعارضا، إلا إذا دلّ الدليل على إرادة المعنى اللغوي؛ لأن القرآن نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة" (٤٦٩).

ورد ابن عطية قول ابن زيد عند تفسير السّنة: ﴿سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٥٥]: "قال ابن زيد: الوَسْتَان الذي يقوم من النوم وهولا يعقل حتى ربما جرد السيف إنّه أهله... لأنه خالف ظاهر

(٤٦٧) ينظر: قواعد الترجيح (١/ ٢٣١)

(٤٦٨) الضعيف هو: ما انحط عن درجة الفصح، والشاذ هو: ما كان وجوده قليلاً؛ لكن لا يجيء على القياس. ينظر: المظهر في علوم اللغة وأنواعها، لجلال الدين عبد، تحقيق: فؤاد علي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ، (١/ ١٦٩)، والكتابات ص ٥٢٩.

(٤٦٩) ينظر: فصول في أصول التفسير، لمساعد، دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٢٠ هـ

اللغة" (٤٧٠). وهذه القاعدة مشتهرة عند المفسرين، حتى قال ابن تيمية: "الواجب أن تعرف اللغة والعادة والعرف الذي نزل في القرآن والسنة وما كان الصحابة يفهمون من الرسول عند سماع تلك الألفاظ؛ الله ورسوله لا بما حدث بعد ذلك" (٤٧١). ومن الأمثلة على الترجيح بظاهر اللغة:

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (٤٧٢). فالمعنى: امسحوا رؤوسكم، فيجب المسح لجميع الرأس عَنِيًّا فَلَيْسَتْ عَفْفُ الآية كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ إِنَّ (الباء) على بابها للإصاق، وليست بزايدة، والمعنى على ثبوت (الباء)، وذلك يوجب عموم المسح، وهذا الوجه أحسن؛ لأن زيادة (الباء) في هذا الموضع غير معروف في كلام العرب. والذين ذهبوا إلى جواز مسح البعض، قال أكثرهم: إِنَّ (الباء) للتبعية فيقتضي مسح بعض الرأس، وهذا قول ضعيف عند أهل العربية، وقد ردّه ابن جني (٤٧٣)

الثاني/ الترجيح بناء على عود الضمير: الأصل إعادة الضمير إلى أقرب مذكور ما لم يرد دليل بخلافه هذه القاعدة قررها كثير من العلماء ورجح بها المفسرون في تفاسيرهم (٤٧٤).

فمعنى هذه القاعدة: أن الضمائر - ويلحق بها ما يناسب قاعدة الضمير من ... أسماء الإشارة وما شابهها في السياق القرآني فالأصل إعادته إلى القريب دون البعيد إلا إذا وجد عن ذلك فيجب ... الرجوع إليه. ويلحق بهذه القاعدة ما يناسبها من أسماء الإشارة والأسماء الموصولة وما شابهها.

(٤٧٠) ينظر: المحرر الوجيز (٢ / ٢٤).

(٤٧١) ينظر: الإيمان، لأحمد بن بن عبد، دراسة وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - عمان، ط الخامسة ١٤١٦ هـ.

(٤٧٢) يراجع: تفسير ابن الجوزي وابن عطية.

(٤٧٣) ينظر: سر صناعة الإعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي، تحقيق: د. حسن هندواوي، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، (١ / ١٢٣).

(٤٧٤) ينظر على سبيل المثال: جامع البيان (١٢ / ٢٤٧)، والإحكام في بن أحمد بن حزم، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، (٤ / ٤١٥) و (٤ / ٤٣٥)، والاستنكار (١ / ٣٧٨)، والمحرر الوجيز، والجامع لأحكام القرآن (٢ / ١٣٥) و (٣ / ١٧٠)، ولباب التأويل في معاني التنزيل (٢ / ٢٦) و (٤ / ٥٢) و (٤ / ١٠٣)، والبحر المحيط لأبي حيان، والكليات ص ٥٦٩، والبرهان في علوم القرآن (٤ / ٣٩)، وأضواء البيان (٤ / ٢٤٦).

- توحيد مرجع من تفريقها^(٤٧٥): مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ...﴾ [سورة النساء، الآية:

٤]. فقال ابن العربي: "المسألة الأولى: من المخاطب بالإيتاء؟ وقد اختلف الناس في ذلك على قولين: أحدهما: أن المراد بذلك الأزواج. والثاني: أن المراد به الأولياء. واتفق الناس على، وهو الصحيح؛ لأن الضمائر واحدة؛ إذ هي معطوفةٌ بعضها على بعض، ويؤيد ذلك قاعدة: "إعادة الضمير إلى المُحَدَّث عنه أولى من إعادته إلى غيره"^(٤٧٦).

الثالث/ الترجيح بالأضعف: يكثر في ترجيحات ابن عطية (ت: ٥٤٢) ألا يذكر فيها مستند الترجيح، بل يضعف بعض الأقوال أو يقويها دون أن يذكر سبب ذلك، ومن ذلك ترجيحه لبعض الأقوال بسبب اللغة، ومما صرح فيه بالاعتماد على اللغة في الترجيح:

١. في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤]، قال: «والجوارح: الكواكب، على ما تقدم. وحكى ابن المنذر عن قوم أنهم قالوا: الجوارح، مأخوذ من الجراح؛ أي: الحيوان الذي له ناب، أو ظفر، أو مخلب به صيده. فقال القاضي أبو محمد رحمه الله تعالى: وهذا قول ضعيف، وأهل اللغة على خلافه»^(٤٧٧).
٢. وفي قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣] قال: «وقرأ جمهور الناس: «صوركم» بضم الصاد. وقرأ أبو رزين «صوركم» بكسر الصاد^(٤٧٨). وهذا تعديد النعمة في حسن الخلق؛ لأن أعضاء ابن آدم متصرفة في جميع ما تتصرف به أعضاء الحيوان وزيادات كثيرة فضل بها، ثم هو مفضل بحسن الوجه، وجمال الجوارح. وحجة هذا، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. وقال بعض العلماء: النعمة

(٤٧٥) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي (٢/ ١٥٣).

(٤٧٦) ينظر: قواعد الترجيح عند المفسرين لحسين الحربي.

(٤٧٧) ينظر: المحرر الوجيز، (٤/ ٣٥٤).

(٤٧٨) القراءة عن أبي رزين في كتاب مختصر في شواذ القرآن، لابن خالويه، تحقيق: برجستراسر (ص: ١٥٧)، وقال المنذلي في الكامل (مخطوط، لوحة ٢٤٣ ب): «صوركم بكسر الصاد حيث وقع الأعمش. الباقون بضمها، وهو الاختيار؛ لأنه أشهر». وفي ترجمة أبي رزين مسعود بن مالك في غاية النهاية (٢: ٢٩٦): «قال يحيى بن معين: حدثنا حجاج الأعمش، عن حمزة الزيات، عن الأعمش، عن أبي رزين، أنه قرأ: {فأحسن صوركم} بكسر الصاد».

المعدة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل، فهذا هو الذي حسن له حتى لحق ذلك كمالات كثيرة. وقال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أجرى على لغة العرب؛ لأنها لا تعرف الصورة إلا الشكل» (٤٧٩). ويظهر اعتماد ابن عطية على اللغة في بيان التفسير في مواطن كثيرة؛ كتوجيه القراءات، أو بيان ضعف قول، أو ترجيح معنى على غيره، أو بيان خروج القول إلى رموز وباطن ليس من معهود ألفاظ القرآن، أو تفسيره بمصطلحات حادثة، أو غير هذه من التطبيقات التي اعتمد فيها على اللغة كثيرا.

(٤٧٩) ينظر: المحرر الوجيز، (٤٧٤/١٤)، (٤٧٥).

النتائج والتوصيات

الخاتمة

هذا وقد استوفيت الجهد - والله الحمد- في كتابة هذا البحث، وأرجو أن أكون قد أعطيته حقه في كل ما تناولته في، وهو جهد المقل؛ فإن وفقت فيه فذلك فضل الله، وإن أخطأت فأستغفر الله عن كل ما طغى به القلم، وفيما يلي أهم النتائج:

١. التفسير بالمأثور: هو الذي يعتمد على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة؛ لأنها جاءت مبيّنة لكتاب الله، أو بما روي عن الصحابة؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين؛ لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة. وهو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد - وليس منه الفهم الذي يتفق مع روح الشريعة، ويستند إلى نصوصها- والمراد بالرأي هنا الاجتهاد، فإن كان الاجتهاد موفقاً؛ أي مستنداً إلى ما يجب الاستناد إليه بعيداً عن الجهالة والضلالة، فالتفسير به محمود، وإلا فمذموم.

٢. التفسير المقارن: هو بيان الآيات القرآنية على ما كتبه جمع من المفسرين بموازنة آرائهم والمقارنة بين مختلف اتجاهاتهم والبحث عما عساه يكون من التوفيق بين ما ظهره مختلف من آيات القرآن والأحاديث وما يكون ذلك مؤتلفاً أو مختلفاً من الكتب السماوية الأخرى.

٣. حازت صناعة التفسير الشرف من ثلاث جهات: من جهة الموضوع، ومن جهة الغرض، ومن جهة شدة الحاجة.

٤. خطوات التفسير المقارن:

أ. اللغة بفروعها وهو العلم الذي يبحث في اللغة، ويتخذها موضوعاً له، فيدرسها من النواحي الوصفية،

والتاريخية، والمقارنة.

ب. البلاغة فعلى المفسر الذي يريد فهم كلام الله تعالى أن يتعاطى علوم البلاغة ويبحث في أسرارها،

فإنها تثريه بأصول الكلام العربي وطرق وضعه في سياقاته المتعددة، مما يعينه على الوصول إلى مفهوم

النص على حقيقته.

ج. القراءات وبهذا العلم يعرف المفسر كيفية النطق بالقرآن، والقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على

بعض.

د. الفقه وأحكامه ويتعين على المفسر معرفة الفقه لكونه أداة مهمة من أدوات التفسير وذلك لاشتمال

القرآن على آيات الأحكام، ومن أجل ذلك فقد أفردها بعض العلماء بالتصنيف.

هـ. الإسرائيليات ومن أهم ما ينبغي على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة، ناقداً إلى نهاية

ما يصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات

ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل.

و. علوم القرآن والوقوف على هذه العلوم والاضطلاع بها من أهم الأدوات التي لا بد منها في عملية

التفسير حيث أن معرفة أسباب النزول تمكن المفسر من معرفة الظروف والملابسات التي واكبت نزول

الآية وبالتالي تساعده كثيراً على فهم الآيات الفهم الصحيح الدقيق.

ز. علم الكلام وذلك أنه ما من علم من العلوم الجزئية إلا وله مبادئ تؤخذ مسلمة بالتقليد في ذلك العلم

ويطلب برهان ثبوتها في علم آخر.

ح. الصناعة الحديثية كتب الحديث أحد أهم مصادر المفسر، فلا يستغني المفسر عن الاطلاع على

كتب السنة لاستخراج ما يقف عليه من تفسير نبوي، أو تفسير السلف رضي الله عنهم من الصحابة

والتابعين، وأتباعهم.

ط. الصناعة الأصولية والجانب الأصولي في قواعد التفسير أخذ الحيز الأكبر من القواعد مقارنة مع غيره،

ولا يمكن الإعراض ما للأصوليين من دور في معالجة كثير من القضايا المتعلقة بالنص القرآني، كقضايا

المحمل والمبين وغيرها.

ي. قواعد التفسير لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ثم

يعرف الجزئيات كيف وقعت.

ك. قواعد الترجيح والعلم بقواعد الترجيح تحقق للمفسر غايات عدة، أهمها:

- معرفة أصح الأقوال وأولاها بالقبول في تفسير كتاب الله تعالى.

- تصفية وتنقية كتب التفسير مما علق ببعضها من أقوال شاذة وضعيفة، أو مدسوسة فيها لمذهب

عقدي.